العدد: ٣٤ / السنة الثامنة / (يناير - فبراير) ٢٠١٣
مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من إسطنبول

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

النور المحمدي

بنور محمد ﷺ تلألأَ العالم وأضاء...
أما صوته... فما من أذن وعته،
إلاَّ ودبَّتْ في صاحبها الحياة...
وها نحن اليوم،
على عتبات الموت واقفون...
لعلَّ بعض أنفاسه ﷺ تَمَسُّنا،
فتبعث فينا إرادة "الإحياء" من جديد...

* * *

محمد

الدعاء

"إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا"

مصر.. ومصير الأمة المرتقب

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

العدد: ٣٤
السنة الثامنة
(يناير – فبراير) ٢٠١٣

إكسير الدعاء

لم تقف "حراء" يومًا ما، عند مواطن فكرية معينة لا تتجاوزها... فقد جعلت من الانفتاح على الساحات الفكرية بتنوعها واختلاف توجهاتها، قضية جوهرية معتمدة على إرساء خطها الفكري والثقافي في العالم، وهو دليل احترام المجلة لعقول قرائها وتنوع ثقافاتهم واهتماماتهم. فهذا العدد من "حراء"، يمثل خير تمثيل مصداق ما نقوله ونؤمن به؛ فهو طافح بقمم فكرية عالية المستوى، وامتدادات ثقافية في شتى الاتجاهات تتنوع شكلاً ومضمونًا.

فالمقال الرئيس لـ"فتح الله كولن" الذي يتحدث من خلاله عن فلسفة الدعاء والتضرع إلى الله تعالى، إنما هو صرخة استغاثة تنبئ عن العجز والفقر الإنسانيين، وعن افتقار الأقلام والأفكار مهما بلغت من القوة والسمو إلى الاستمداد من قلم القدرة الأعظم الذي خطَّ سطور السماوات، وأشَّر موازين العدل والحق والخير والجمال... فمهما أبدعت هذه الأقلام فإنها تظل ترنو إلى قلم القدرة المطلقة، وتستمد منه طاقات إبداع ما تسطره من فكر، وتُنشئه من ثقافة وعلم.

أما "القول الثقيل" والمسؤولية العظمى التي أشفقت الأرض والسماء والجبال من حمْلها وحمَلَها الإنسان، فإنها تتجلى واضحة من خلال مقال "أحمد عبادي" الموسوم "إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً".

وللنورسي -رحمه الله- نصيب في هذا العدد، حيث يكتب "إدريس مقبول" عن "العقل المؤيد بالإيمان عند النورسي" فيقول: "ولما تعددت مراتب الوجود وطبقاته، حتى كان الوجود الحسي أدناها، ولا يمثل شيئًا أمام عِظَم الوجود عامة"... إلى أن يقول: "لقد أبان النورسي -رحمه الله- أن منهج التربية في القرآن كما يعلي من قيمة العقل... فإنه في مسيس الحاجة إلى نفحة الإيمان لتحفظه من المهالك وتجعله على أقوم المسالك".

و"الشاهد البوشيخي" بقلمه العلمي الرصين، يكتب عن "فقه واقع الأمة" فيقول حفظه الله: "أجل، إن مشكلة المنهج هي مشكلة أمّتنا الأولى، ولن يتم إقلاعنا العلمي والحضاري إلا بعد الاهتداء في المنهج إلى التي هي أقوم".

وفي الأنشطة الثقافية التي أقامتها مجلة حراء في بلدان مختلفة، نقرأ لـ"محمد باباعمي" "مصر.. ومصير الأمة المرتقب، من جمال حمدان إلى فتح الله كولن"، فيورد كلامًا لفتح الله كولن يقول فيه: "الشرط الأساس والسبب الرئيس هو أن لا تخلو الساحة من شجعان مالكين لإرادة تجديدية تحتضن العصر مع الحفاظ على الجوهر اللب". ويجدر في خاتمة هذا الاستعراض لمواد هذا العدد، أن ننوه بالقصص والشعر في ثنايا هذا العدد وهو ما يشكّل واحة ممتعة ومريحة للقرّاء.

المحتويات

الدعاء / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
القلب شاطئ أمواج الماوراء / حراء (ألوان وظلال)	٥
من جمال الإسلام / د. عبد الله بن صالح العريني (قصة)	٦
التربية البيئية في ضوء توجيهات التربية الإسلامية / فيصل ذيب (تربية)	٩
الكون شعر منظوم / حراء (ألوان وظلال)	١٢
"إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا" / أ.د. أحمد عبادي (قضايا فكرية)	١٣
عالَم الطفولة / حراء (ألوان وظلال)	١٦
الهجرة.. نقطة انطلاق الأمة / د. عبد الوهاب بوخلخال (قضايا فكرية)	١٧
من حقوق الحيوان في الإسلام / د. عبد الواحد بوشداق (قضايا فكرية)	٢٢
مفاهيم المشروع النهضوي الإسلامي المعاصر / د. محمد سالم سعد الله (قضايا فكرية)	٢٦
العقل المؤيد بالإيمان عند النورسي / د. إدريس مقبول (قضايا فكرية)	٣٠
الهدهد.. الطائر الذكي / أ.د. عرفان يلماز (علوم)	٣٥
الجندي الصغير / محمد قاسم الهندي (قصة)	٣٩
الجزري.. اختراعاته العلمية وتطبيقاته الميكانيكية / أ.د. بركات محمد مراد (تاريخ وحضارة)	٤٢
فقه واقع الأمة –٢.. دراسة في الشروط والعوائق / أ.د. الشاهد البوشيخي (قضايا فكرية)	٤٦
بشائر عالم جديد / حراء (ألوان وظلال)	٥٠
جمال الفكر / ليلى السبيعي (شعر)	٥١
التلسكوبات.. عيون على السماء / محمد هاشم البشير (علوم)	٥٢
مصر.. ومصير الأمة المرتقب / د. محمد باباعمي (أنشطة ثقافية)	٥٥
"فلسفة البناء الحضاري" بين يدي "مالك بن نبي" و"فتح الله كولن" / طه كوزي (أنشطة ثقافية)	٦٠
اليعسوب.. وتقنية طائرات الهيلوكبتر / نور الدين صواش (محطات علمية)	٦٣

www.hiramagazine.com

الدعاء

الدعـاء نداء وتضرع، وتوجـه من الصغير إلى الكبير، ومن الأسـفل إلـى الأعلى، ولهفة من الأرض ومـن سـكان الأرض نحـو مـا وراء السـماوات، وطلـب ورغبة وطرح لما فـي الصدور من آلام. والداعـي يشـعر بضآلتـه أوّلاً، وبعظمة صاحـب الباب الذي يتوجـه إليـه ثانيًا، لذا يكون متواضعًا جـدًّا. وعندما يرفع يديه بالدعـاء مؤمنًا بالاسـتجابة، يتحول هو ومـن حوله إلى عالم روحاني وسماوي، وكأنه يسمع تسبيحات وأذكار الروحانيين وأدعيتهـم. والمؤمـن بهـذا التوجه وبهـذا الدعـاء، لا يطلب مـا يـوده وما يطمـح إليه فقط، بل يسـتغيث أيضًـا مما يخافه ويخشاه، وهو يعلم بأن الدعاء حصنه الحصين الذي يلجأ إليه.

آمالنا ورغباتنا هي دوافع نجاحنا وتوفيقنا، أما قلقنا وخشيتنا فوسيلة من وسائل يقظتنا وانتباهنا تجاه تصرفاتنا السلبية. ومع أننا لا نعرف ما قدّره الله تعالى لنا ولمسـتقبلنا من أمور، نَعُدّ آمالنا وخشيتنا -في كل حين- وعزمنا وقرارنا أمارة من أمارات ذلك القدر، ونعد دعواتنا القولية والفعلية والحالية وسيلة من وسـائل هذا القدر في مستوى الشـرط العادي، لأننا نعلم من بيان النبي الصادق المصدوق ﷺ أن النتيجة التي يحصل عليها كل واحد سـتتحقق، بمقياس كبير، حسـب سـلوكه وأعماله. غيـر أنـه ليس من الصحيح عند التوجه إلى الله تعالى بالدعاء، أن نقـدم رغباتنـا ومطالبنـا، ونربـط أدعيتنا بها، بـل الصحيح هـو أن نتوجـه إلى الحـق تعالـى، ونَعرض عليه حالنـا بنَفَس العبودية، وبشعور من التواضع والفناء، وبلسان الفقر والعجز.

الدعاء تعبير عن الثقة بالله

والحقيقة أننا بأدعيتنا نظهر ثقتنا واعتمادنا وتوقيرنا لربنا، وبأنه قـادر على كل شـيء، ويجب أن تتوجـه أدعيتنا إلى هذا، أكثر مـن توجهها لطلب تحقيق رغباتنـا الدنيوية. ونصلُ أحيانًا في الدعاء إلى نقطة نسـكت فيها ونصمت، ونكل كل شـيء إليه

تعالى مع الاحتفاظ بالتوسل بالأسباب، ونقول كما قال الشاعر:

أحوالنا معلومة يا رب من قِبلك،
ما الدعاء إلا تضرع من عبيدك...

وأحيانًا نقتبس أدعيتنا من القرآن الكريم أو من أدعية سيد البلغاء والأنبياء ﷺ، ونفتح يد الضراعة أمام باب الرحمن الذي هو محرابنا الأبدي لنشرح ونشكو أحوالنا وما يجول في أعماق أرواحنا. ورعايةً منا لأدب المثول أمامه نغلق أفواهنا تمامًا وننتقل إلى مراقبة صامتة. وهذه الحال حسب بعضهم -وبدرجة الصدق المصاحب لها- أبلغُ من كل كلام، وأفضل من كل بيان، وأحسن من كل تضرع.

ولما كان الله تعالى على علم بكل أحوالنا، الظاهرة منها والخفية، فإن المهم هنا في الدعاء هو اللب والجوهر أكثر من الكلمات نفسها. والله تعالى يقول لرسوله الكريم ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(البقرة:١٨٦)، إذن فهو من ناحية معرفة طلباتنا ورغباتنا، أقرب إلينا منا. لذا فَحَسَب هذه المعرفة بالحضور الإلهي وبالقرب الإلهي، فإن الأدعية الصامتة هي عين الأدب مع ذلك المستوى المتميز من العباد. وسواء أكان هذا نابعًا من مفهوم الغيب أو من مفهوم الحضور الإلهي، فإن الله تعالى الذي يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(غافر:٦٠) يشوقنا إلى الدعاء. لذا يُعد عدم الدعاء استغناء لا معنى له وانقطاعًا وبعدًا عن الله تعالى.

أيها الموجود الأزلي الذي هو سبب وعلة وجودنا، وروح أرواحنا! يا من نوره ضياء أعيننا وأبصارنا! لو لم تنفخ الروح في أبداننا لبقينا حمأ مسنونًا، ولو لم تهب النور لأعيننا كيف كنا نستطيع فهم وتقييم الكون من حولنا، وكيف كنا نستطيع معرفتك؟

الدعاء سمو وندو

إن من يستطيع فتح يديه لله داعيًا وضارعًا من كل قلبه، ويتوجه له، يستطيع تجاوز البعد الموجود بينه وبين ربه -الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد- والنابع من وضعه المادي والجسماني. وباحترامه لهذا القرب يستطيع الخلاص من وحشة بُعده عنه. ويشاء الله تعالى إسماعه ما يجب أن يَسمع، ويُريه ما يجب عليه أن يَرى، ويُنطقه بما يجب عليه أن يَنطق، ويوفقه لعمل ما يجب عليه أن يعمله. وهذه المرتبة من القرب، مرتبة خاصة يمكن الوصول إليها عن طريق النوافل، حيث يَرى ما وراء المُشاهَد، ويسمع ما وراء الأصوات، وتكون قابلياته الأخرى أيضًا غير اعتيادية، وتتجاوز قدراته السابقة ليصبح -في هَبَّة واحدة- إنسانًا في بُعد آخر، وليرتفع إلى مستوى آخر، ويكون عبدًا دائم التضرع لله، يتضرع إليه ويدعوه ويجد منه الاستجابة... يتمسك بالدعاء والتضرع كتعبير عن إيمانه بالقدرة غير المحدودة لربه، ويُسند ظهره إلى قوته اللانهائية، فلا تفتر شفتاه عن الدعاء في كل أمر من الأمور وإن بدا أبعد شيء عن التحقق.

الدعاء لذة إيمان

ولهذا فإن الأرواح التي وصلت لمستوى تذوق لذة الإيمان، وسمت بالعبادات، لا تقصّر أبدًا في الدعاء. على العكس من هذا، فهي تدرك أن العبادات هي غاية الموجودات وسبب خلقها، لذا تعطي للدعاء أهمية قصوى. وبجانب قيام أصحاب هذه الأرواح برعاية الأسباب المادية والمعنوية، يسارعون إلى فتح يد الدعاء والتضرع لربهم من أعماق قلوبهم، ويرون أن الأدعية وسائل تُقَرّبُهم إلى خالقهم، وهي منبع آمالهم ورجائهم. وفي مثل هذا الجو من القرب يُحَسّ بجو من المهابة والقلق إلى جانب الشعور بالبهجة وتَوقُّع تحقيق الآمال. وعندما ينظر الإنسان إلى كل شيء من خلال تأمله في أزليته وأبديته سبحانه، يحس وكأنه يستمع إلى دقات قلبه المرتعش، وينتقل إلى حالة من اليقظة والتمكين. وهاتان الحالتان اللتان تترافقان عادة عند الدعاء وتتداخلان ببعضهما، تتسعان وتتطوران بنسبة طردية مع سعة أفق المعرفة الإلهية عند الإنسان. والقرآن يشير إلى حال المؤمن عند الدعاء وإلى حالته الروحية عندما يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾(الأعراف:٥٥). وهذه الآية تشير إلى أن المؤمن لا يمكن أبدًا أن يستغني عن الدعاء وعن الالتجاء إلى الله، وإلى أن الله تعالى بجانب عظمته وكبريائه وجبروته لا يسد أبواب رحمته وعنايته، بل يذكّر الإنسان بأن أبواب رحمته مفتوحة للجميع على الدوام على مصاريعها، ويؤكد على أهمية الدعاء.

الدعاء، لبّ التوجه إلى الله

ونظرًا لكونه هو وحده خالقنا ومُوجدنا ومُطعمنا ومطورنا

من حال لحال، والعارفَ بحاجاتنا ورغباتنا والمستجيبَ لها، وصاحبَ الرحمة الواسعة الذي لا يدع أمورنا لغيره، وذلك مقابل عجزنا وفقرنا وضعفنا وحاجتنا، لذا كان من الأهمية بمكانٍ قيامُنا بتعيير سلوكنا وتصرفاتنا تجاهه بكل دقة وعناية. نحن عاجزون وضعفاء ومحتاجون، بينما هو الحاكم المطلق على كل شيء. لذا نحس على الدوام بمدى صغرنا، وبمدى عظمته، ولا نتوجه عند طلباتنا الفعلية والحالية إلا إليه وحده دون غيره، ونعلم أن الظهور بمظهر المستغني عنه ليس إلا سوء أدب. كما نَعُدّ أي تصرف يتسم باللامبالاة عند عبادتنا له أو عند توجهنا له بالدعاء أو أيّ تصرف يفتقر إلى الجدية، عدمَ احترام وعدم توقير. لذا نعتني غاية الاعتناء أن نتوجه إليه على الدوام بمشاعر الخوف والإشفاق والمهابة. وعندما نشعر بمدى قربه منا وبأنه سيستجيب لدعائنا، نشعر بعظمته وكبريائه جنبًا إلى جنب مع سعة رحمته وشفقته ولطفه... فنرتجف من خشيته ونرتعش، ونعيد النظر في تصرفاتنا وسلوكنا وأعمالنا، وحتى في درجة ارتفاع أصواتنا، ونُغَيّرها من جديد، لأننا سنكون في جو من الشعور بأننا تحت مراقبةِ مَن لا يغيب عنه شيء، وتحت نظره. فبجانب أذواقنا لا ندع الاحتياط والتدبير. وبهذا المعنى فالدعاء أصفى مظهر من مظاهر العبودية وأصدقها في كل حين، لكونه لبّ التوجه إلى الحق تعالى بالطلب وأفضلَ إعلان للعبودية.

والحقيقة أن كل الموجودات تدعوه وحده ﷻ على الدوام بلسان حالها، وبنوع قابلياتها، وبلسان حاجاتها الفطرية، فيقوم بالرد والاستجابة لها ضمن إطار من الحكمة، ويسمع كل صوت ويستجيب له.

ولكن ليس من الصحيح توقع الاستجابة لكل أدعيتنا كما هي، لأننا لا نأخذ بنظر الاعتبار إلا رغباتنا وطلباتنا المتعلقة بأيامنا الحالية، فنضيّق بهذا، إطار طلباتنا، وننسى أو نهمل المستقبل أو الأمور الأخرى المتعلقة بنا عن قرب ولا نأخذها بنظر الاعتبار. ولكنه تعالى يرى حالنا الحاضر، وكذلك مستقبلنا القريب والبعيد في اللحظة نفسها، فيوسع ما ضيقناه حتى يجعل أدعيتنا بِسَعة الدارين في الدنيا وفي العقبى، ويستجيب لها ضمن أبعاد متعددة حسب موجبات رحمته وحكمته. أجل، فهو عندما ينير أوضاعنا الحالية، لا يفسد مستقبلنا ولا يحوّل أضواء أيامنا الحالية إلى ظلمات في المستقبل. وعندما يقوم بالإنعام علينا، لا يَسحب من الآخرين نعمه ولا يحرمهم من فضله، بل يستجيب للجميع ولكل شيء استجابات عميقة، ليظهر لنا أنه سمع أدعيتنا، وأخذ طلباتنا بنظر الاعتبار، فيهب قلوبنا بقربه وحضوره انشراحًا وبهجة وراء كل خيال وتصور.

الدعاء مفتاح القلوب إلى الماورائيات

والقلب المتفتح على هذه المعاني عندما يفتح كف التضرع والدعاء، يعلم بوجود من يراه ويحس حتى بأنفاسه، ويعلم سره ونجواه، ويشهد أنينه وبكاءه، وهو على كل شيء قدير، وحاكم ومسيطر على كل شيء، يعمل ما يشاء وكيفما يشاء، وأن هناك حِكَمًا مختلفة في كل ما يفعله. واستنادًا إلى رحمته وإرادته ومشيئته، يرى الداعي بأنه يستطيع التغلب على كل صعب من الصعاب، ويحس بالطمأنينة في أكثر أوقاته توترًا، وفي أصعب وأحلك الحوادث التي يجابهها، ولا يتخلى عن أمله أبدًا، ولا يلفه اليأس مطلقًا. وكم من معان عميقة تكمن في توجهه نحوه تعالى عدة مرات يوميًّا ضمن هذا الإطار، محاولاً أن يرى ويسمع بقلبه ما وراء هذا العالم المادي. والذي يذوق فضلَ مثل هذا التوجه ونعمتَه، لا يستطيع ترك ملازمة عتبة بابه تعالى. وحتى وإن لم نستطع الوصول تمامًا إلى مثل هذا الفضل، نتوجه للمرة الأخيرة نحو باب حضرته العليّة، ونلمس مطرقة الباب لنتضرع وندعو بقلب يئن:

أيها الموجود الأزلي الذي هو سببُ وجودنا وعلته، وروح أرواحنا! يا من نوره ضياء أعيننا وأبصارنا! لو لم تنفخ الروح في أبداننا لبقينا حمأً مسنونًا، ولو لم تهب النور لأعيننا كيف كنا نستطيع فهمَ وتقييمَ الكون مِن حولنا، وكيف كنا نستطيع معرفتك؟ لقد أوجدْتَنا مرتين؛ مرة عندما خلقتنا... ومرة عندما وهبت لنا الإيمان والعرفان. ولو قمنا بحمدك والثناء عليك بعدد ذرات الكون، لما وفّينا حقك من الشكر.

يا أجمل من كل جميل! ويا أبهى من كل بهي! يا من تُظهر صور الجمال في كل آن وحين، وتستر ما يبدو قبيحًا حتى تضفي عليه مسحة من الجمال! نتضرع إليك أن تملأ قلوبنا بمشاعر الجمال وأحاسيسه، وأن تبصّرنا بطرق الجمال ومسالكه على الدوام.

يا أرحم من كل رحيم! يا من لا تعاقب المسيء فورًا، بل تمهل وتتغاضى عمن يتجاوز حدّه، وتترك له فرصة لتنقية قلبه من الذنوب والآثام المعنوية! احفظنا يا رب من التلوث بالآثام وبالذنوب، واغفر لنا عندما نتلوث ببعضها، ولا تحرمنا من مغفرتك ومن رحمتك ولا تبعدنا عنها. كنا

عدمًا فأوجدتنا، ونحن مستمرون في الحياة بفضلك وبلطفك وبجودك وإحسانك، محاطون على الدوام بجودك وبإحسانك وكرمك. أنت يا رب من يمنح النور لعقولنا، ولذةَ الإيمان لقلوبنا. كان العقل في تشوش وتخبط حتى وصل إليك، وكانت النفس تعدو وراء البغي. وعندما جعلتَ العقل مرشدًا وهاديًا لجمت به أهواء النفس وفتحت أمامها أفق الاطمئنان. لقد وَجدنا أنفسنا بفضلك، وتخلصنا من الضياع هنا وهناك في الدروب بلطفك.

ما وصلتْ قلوبنا إلى الاطمئنان إلا بمعرفتك. وما تخلصت أفكارنا من الهذيان القاتل وانسلّت منه إلا بالاستسلام لك. أتينا إلى بابك وطرقناه بذلة وخضوع، ندعوك أن تديم هذه الذلة لك إلى أبد الآبدين. اسمُك على الدوام على شفاهنا عند دعائك، ننتظر بِرَهْبة وخشية جوابك. لم يَسمعنا حتى اليوم سواك، ولم يربّت بشفقة على رؤوسنا أو ينظر أحد سواك إلى وجوهنا. كل ما وجدناه كان من عندك وحدك. وبفضل الإيمان بك تخلَّصْنا من مشاعر الغربة والحيرة والذهول، ومن آلام الوحدة والوحشة، لذا نتوجه إليك مرة أخرى بكل كياننا نطلب منك العفو والعافية.

نعوذ بك من قساوة القلب، ومن الاستناد إلى غيرك، ومن الغفلة ومن الإهانة والهوان، ومن المسكنة والجهل، ومن علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، وعين لا تدمع، ونفس لا تشبع، ومن دعاء لا يستجاب له، ومن زوال النعم، وتغير الألطاف، ومن عذاب عاجل وغضب ماحق.

ندعوك أن تهب لنا لسانًا ضارعًا، وقلبًا خاشعًا. اقبل منا يا رب توبتنا، ونقنا من خطايانا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، واستجب دعاءنا، وافتح آفاق قلوبنا، وألزِم ألسنتنا كلمة الصدق، وطهر قلوبنا من الدنس يا رب! وهب لنا يا رب ثباتًا في أعمالنا، وعزمًا وقرارًا في طريق القرآن، وحساسية تجاه نعمك. لا تُرجِعْ يا رب من يدق بابك خائبًا، وتفضل بنعمك وألطافك على عبادك الطائعين، واهد من عصاك وضلَّ عن سبيلك. وزيِّنْ دعاء المضطرين بالاستجابة لهم، وساعِدْ أصحاب الكرب، وعالجْ أصحاب القلوب المريضة وهب لهم الشفاء، وأظهر نورك للذين يتخبطون في ظلمة الكفر والإلحاد كي لا تبقى فيهم أي نقطة أو ركن مظلم. ■

(*) الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي. (رحمه الله)

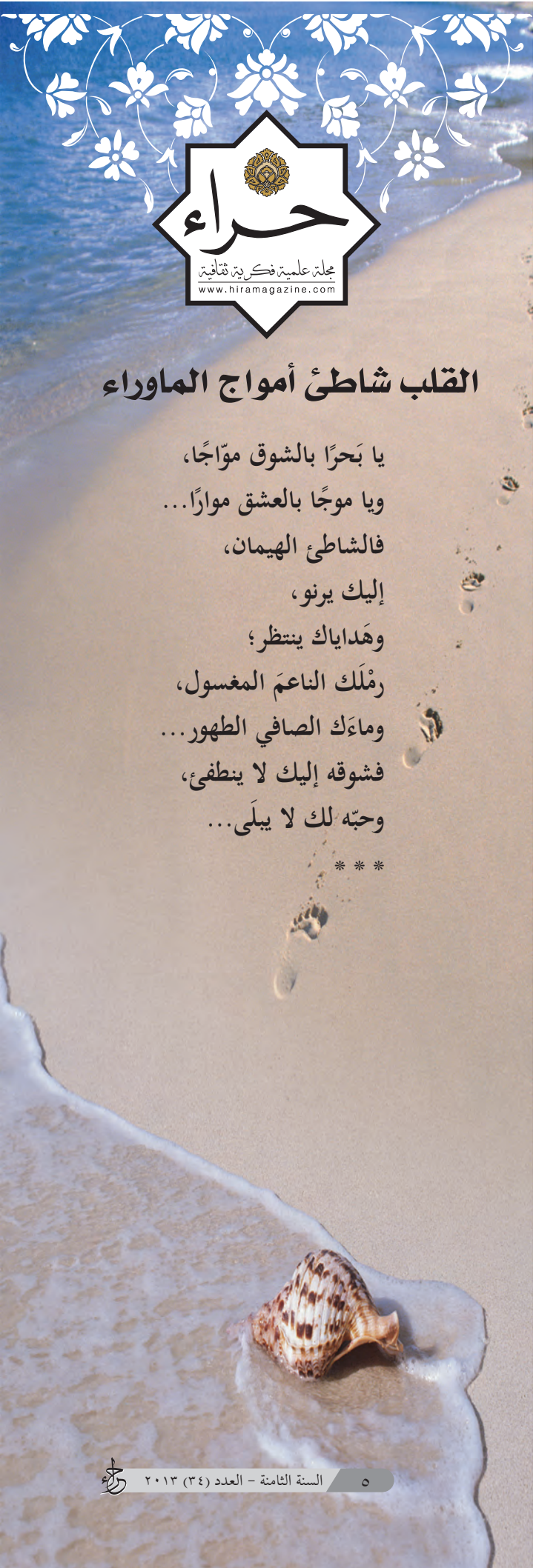

القلب شاطئ أمواج الماوراء

يا بَحرًا بالشوق موّاجًا،
ويا موجًا بالعشق موارًا...
فالشاطئ الهيمان،
إليك يرنو،
وهَداياك ينتظر؛
رمْلَك الناعمَ المغسول،
وماءَك الصافي الطهور...
فشوقه إليك لا ينطفئ،
وحبّه لك لا يبلَى...

* * *

قصة

د. عبد الله بن صالح العريني*

أشرف ما عرفته الأرض من علم، هو ذلك العلم الذي يغوص في ماهية الإنسان وغايات وجوده، وأسرار أكوانه وعوالمه، وكل علم دون ذلك فهو إلى الجهالة أقرب، وفي العماء أبعد.

* * *

(الموازين)

من جمال الإسلام

لم أكن بحاجة لتذكيري أن البر بالوالدين فرصة ذهبية لا تعوض لدخول الجنة، ولذا أصررت على أن أصحب معي أسرتي وبخاصة والدتي المريضة، وأن يكون ذلك شرطي الأول والأخير لقبول الابتعاث إلى ألمانيا في دورة مدتها سنة وبضعة أشهر، لدراسة مواد تخصصية في مجال عملي.

أكد لي المدير أن لا يمكن ابتعاثي بهذا الشرط، وأن هناك ثلاثة موظفين ليس عندهم ظرفي الذي يستوجب ذلك الشرط. سألته:

- هل تراني أكفأ المتقدمين أم لا؟

قال: بصراحة، نعم.

- أليس في نظام الابتعاث شيء بخصوص ظرف مثل ظرفي مع والدتي؟

- أظن.

- لا.. بل فيه.. أنا متأكد أن واضع النظام قد راعى مثل هذا الظرف المهم في مجتمعنا، ومع ذلك فأنا من كل قلبي أخبرك أنه لا رغبة لي في الابتعاث إلا باصطحاب والدتي، وثق أنني لا أقبل المساومة على هذا الشرط.

وانتهى النقاش عند هذا الحد بيني وبين المدير، ونسيت الموضوع تمامًا. فلم أكن أطمح إلى الابتعاث لأن دبلوم الابتعاث يحتاج إلى معاناة، ثم إن مردوده الوظيفي لا يستحق كل هذا العناء، ولذا شعرت حين أخبرني المدير بعد ذلك بقرار ابتعاثي أني أقدم على شيء ليس مريحًا...

لم تفرح زوجتي كثيرًا بخبر هذا السفر، ولم تخفِ والدتي ضيقها وإن كانت لا تبدي أي اعتراض، وذلك من طيبة ودها ولطفها بي. فهي تلقي وجهة نظرها بأسلوب خفيف بعيدًا عن الإحراج، لأنها تعرف أن أي وجهة نظر منها، سأعدّها أمرًا أمتثله مهما كان. ولذا لم تكن تتضجر أو تبدي تأففًا لأي أمر تراني مُقدِمًا عليه أو في مصلحتي، وكانت تثق كل الثقة باختياري ورأيي، وهو شيء أعتز به، وتوفيق من الله أشكره عليه.

وعلى الرغم من ذلك الجفاف والبرود الذي صاحب قبول الابتعاث، إلا أنني أشعر داخل نفسي بأن الابتعاث سيكون من ورائه خير ما، لا أدري ما هو، لكنني أحس بأنه سيحدث. قلت لوالدتي: "نغير جوًّا ونزداد خبرة ومكافأة". قالت بسماحة نفس: "الله يدبرنا وإياك للخيرة المباركة". واعتبرت هذا القول منها موافقة ثمينة.

وفي الأيام التي سبقت السفر، زرت مع والدتي الطبيبةَ التي تتابع علاجها، وأخذت كمية كبيرة من الأدوية التي تتناولها، وكذلك كل ما أتوقع أنها تحبه وستفتقده في السفر.

وصلنا إلى "كولون" بألمانيا، المدينة التي سوف أدرس فيها. وأسرعت في البحث عن سكن مريح فوجدته في حي هادئ جدًّا. لم يكن يعنيني في الدرجة الأولى إلا الراحة النفسية لوالدتي ولزوجتي وأطفالي الثلاثة.

وسارت أمور الدراسة سيرًا حثيثًا مع حرصي ألا تستأثر بوقتي جميعه، ولذا لم أضغط على نفسي في الجدول الدراسي، لكي يكون لي وقت مع أسرتي ووالدتي. ولم أجد صعوبة تذكر بالنسبة لعائلتي، إذ كانت هنالك مرونة في التلاؤم مع الظروف الجديدة، فسارت الأمور على خيرما يرام.

أما بالنسبة لوالدتي المريضة المقعدة، فلابد أن تلقى مني ومن الأسرة عناية مضاعفة، وإن كنت على يقين أنها -حتى وإن لم ترتح في الغربة- فلن تبديَ لي شيئًا من ذلك، حتى لا تكون سببًا في إرباكي أو مضايقتي. ولذا لم أدخر جهدًا في بذل سبل الراحة لها.

واشتريت سيارة مناسبة، فكنت أوقفها قريبًا من باب المنزل، ثم أدفع بالكرسي المتحرك الذي تجلس عليه إلى السيارة فإذا حاذيت الباب فتحته، وحملتها برفق بالغ ووضعتها على الكرسي المجاور لكرسي السائق، ولم أنس في كثير من الأحيان أن أمازحها بكلمة تشجيع أو مجاملة.

وكلما خطر في ذهني شيء من التضايق أو التعب، استحضرت قصة ذلك الرجل الذي حمل والدته وطاف بها البيت وسأل عمر ﷺ هل أدى حقها أو شيئًا من حقها؟ فقال له عمر: ولا طلقة من طلقاتها، إنك تحملها وتتمنى موتها حتى تستريح، وحملتك وهي تتمنى لك الحياة.

أتذكر هذه الحادثة فأستحي، وأبعد كل غرور يطيف بأرجاء نفسي في أن أكون قد أديت شيئًا من الواجب نحوها. ومع ذلك لا أذكر أنني تعمدت إغضابها، وكنت سعيدًا لا تكاد الأرض تسعني من الفرح حين أرى مخايل الرضى على قسمات وجهها، وأسمع منها الدعاء الصادق الندي الذي أجده يعطر الأجواء حولي أينما ذهبت.

كنت رفيقًا بها، حنونًا عليها كلما أنزلتها من السيارة ووضعتها على الكرسي المتحرك، أو عند التجول بها في الحديقة أو السوق. وقد عرفت زوجتي أن هذا الأمر من مهماتي، فتولت العناية بأطفالي والإمساك بهم في مثل تلك التجولات.

كانت هنالك عينان ترقبانني في كثير من الأحيان دون أن أشعر، وكانت تبهرهما العناية المدهشة وسعة صدري في هذه الرعاية التي أقوم بها لأمي.

وفي إحدى الأيام وعقب المجيء من جولة من جولات التنزه مع والدتي وزوجتي وأطفالي. وجدت جاري قادمًا نحوي وأنا في طريقي لإنزال بعض الأغراض من السيارة.

إنني أعرفه معرفة خفيفة، فطالما تبادلت وإياه تحايا عابرة حينما نلتقي قريبًا من منزلنا، أو في السوق المركزي الصغير للحي الذي نسكن فيه.

كان رجلاً طويلاً، ضخم الجثة، أشيب الشعر، تدل سحنته على شيخوخة وكبر في السن، وإن بدا وافر النشاط جم الحيوية، لكنه أبدًا لا يستطيع إخفاء أعراض الشيخوخة التي تبدي زحفها القوي على بدنه وتترك بصماتها الواضحة في انحناء ظهره، وتجعد بشرته، وضعف بصره... لكن روحه بالفعل كانت شابة، تتجلى في نظراته المتفائلة، وابتسامته الصافية البسيطة التي لا يتكلفها، يحيي بها كل قادم حتى ولو كان غريبًا مثلي. قال لي:

- لقد تعارفنا منذ مدة أليس كذلك؟

- سعدتُ بذلك.

- لا أحب الفضول أو التدخل في شؤونك الخاصة، ولكن هنالك شيء يثيرني وأتعجب منه كثيرًا... هذه العجوز التي تعتني بها، كم تدفع لك من الأجرة مقابل هذه العناية الشديدة بها؟ لابد أنها تجزل لك المكافأة؟!

ثم أضاف:

- لقد رأيتك تعتني بها عناية فائقة، وذهلت لاستمرارك على هذا المستوى، دائمًا تحملها في السيارة ثم تنزلها منها، وتقبل رأسها ويدها، وتتجول بها وترفه عنها... لم أرك في يوم من الأيام متضايقًا من خدمتها. لقد أثار هذا فضولي كثيرًا

لا مؤاخذة! ولكن هذا ما حدث بالفعل، وهو ما دفعني بالفعل إلى هذا السؤال.

ورأيت أن أزيل الكلفة بيننا فقلت له:

– سأجيبك على تساؤلك، ولكن ليس هنا ونحن وقوف على باب المنزل، أرجو أن تتفضل وتشرب معي فنجانًا من القهوة.

– أنا حريص على وقتك... ربما لا تعلم أنني متقاعد ولدي وقت فراغ أكثر منك بكثير.. وأكثر مما أريد.. ولا أريد أن أضايقك.

– لا مضايقة أبدًا.

ودخل معي إلى المنزل، وبينما كنا نرتشف القهوة، رحت أجيبه عن تساؤله الذي أفضى به إلي، وأخبرته أنها أمي، وأنني أخدمها بدون نقود، بل إنني أنفحها في كل شهر بمصروف خاص تنفق منه ما تريد، مع تغطية جميع ما تحتاج إليه بكل معنى الكلمة. ذهل وهو يسمع هذه المعلومات... قلت:

– ليس هذا هو المهم.

نظر إليّ بتعجب وقال:

– وهنالك ما هو أهم من ذلك؟

– نعم، إنني أقوم بكل ذلك في سعادة غامرة، ورضى يغمر قلبي بالحب والسرور، إنني لا أشعر أنها مشكلة على الإطلاق، بل نعمة موفورة أتاحها القدر لي. وهنالك شيء أُومن به وهو أن ما سأقدمه لوالدتي سوف أجده من أبنائي، والأمر الأعظم من ذلك كله أنني أريد رضى الله تعالى. ولدينا إيمان نحن المسلمون، بأن رضى الله من رضى الوالدين، وسخطه من سخطهما، فهما أو أحدهما سبيل لنعيم خالد، أو لعذاب خالد مستمر بعد الموت، هذا أمر الله تعالى ويجب أن نمتثله ولا نعارضه.

قال بلهجة ونبرة فيها تأسف:

– أنا لا أصدق أن مثل ذلك يحدث لولا أن رأيتك بعيني!

وتنهد بحسرة بالغة وهو يقول:

– لقد أحلت إلى المعاش منذ ثلاث سنوات، ولو لم يكن لدي هذا المنزل وراتب المعاش لرمى بي ولدي وابنتي إلى دار المسنين، لأني لا أجد عندهما أي عاطفة نحوي... لقد أنفقت مالاً كثيرًا في تربيتهما وتعليمهما، ومع ذلك فقد نسيا ذلك كله... ثم توقف ليقول:

– أتصدق أن ابني قد زوّر توقيعي عدة مرات وسحب من رصيدي في المصرف عدة مرات؟ كان يعلم أنني أحبه وأني لن أعاقبه. وقد غضبت منه وقتها، ولكنني لم أستمر في غضبي لأنني بالرغم من كل شيء أحبه، والمشكلة أنه يعرف ذلك... لقد خدمت في الشرطة زهرة شبابي حتى وصلت إلى رتبة جيدة، والآن أعيش وحدة قاتلة. ولو كانت زوجتي بجانبي الآن ربما كانت المشكلة أقل، لكننا كنا قد افترقنا بالطلاق منذ عدة سنوات، وعاش كل منا وحده. لا أدري ما حدث لها بعدي... آسف!

ثم أضافة بلهجة حزينة...

– لقد أشغلتك بأمور لا تعنيك.

– لا، أبدًا... أنا سعيد أن تختارني بالذات لتكشف لي عن معاناتك... وهذه ثقة أعتز بها، أعتز بها كثيرًا.

– حقًّا... أنت تبالغ في مجاملتي.

– هذا ما أعتقده... أنا لا أجاملك.

وسار الحديث هادئًا هانئًا، ثم تجدد اللقاء بعد ذلك، حيث دعاني إلى منزله عدة مرات... وحين عرف أن ديني الإسلام هو الذي يجعلني أحترم والدتي وأحبها وأبذل الكثير لإسعادها، رأيته يطلب مني أن أحدثه عن الإسلام... قال إنه لا يعرف إلا القليل عنه، وأن هذا القليل لا يشجع مطلقًا على الدخول فيه.

وجدتها فرصة... قلت له:

– لماذا لا تتعامل مع المصدر الأصلي لتعاليم الإسلام؟

– ما هو؟

– القرآن الكريم.

وناولته في اليوم التالي نسخة من القرآن الكريم، وعددًا من الكتب الإسلامية المتميزة، وتركته يقرأ على مهل، ويفكر بهدوء، وأنا أدعو من صميم قلبي أن يهديه الله على يدي. ولم يخيب الله رجائي، إذ لم تمض ثلاثة أشهر، إلا وهو يأتي إليّ يعلن فيه رغبته في اعتناق الإسلام... هذه الرغبة التي أَشْعَلتْها في نفسه –بعد توفيق الله– رؤيته لرعاية والدتي بكل حب وحنان. لقد جاءت به المشاهد التي رآها لمعاملتي لوالدتي ليكون من المسلمين من غير أن أكلمه وقتها بأي كلمة عن الإسلام. ■

(*) عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية / المملكة العربية السعودية.

فيصل ذيب*

علِّمْ نفسك ثم علِّمْ غيرك تكنْ إنسانيًّا واضح الإنسانية... فالذي لا يسعى لتجديد نفسه بالتعلم الدائم يومًا بعد يوم وإنْ بدا إنسانًا في صورته، غير أن سريرته تبقى غارقة في جهالته، بعيدة عن معاني إنسانيته.

(الموازين)

* * *

التربية البيئية

في ضوء توجيهات التربية الإسلامية

إن الحركة الذاتية لمكونات وعناصر البيئة، حركة توافقية ينسجم بعضها مع بعض في ظل نظامٍ غاية في الدقة تحكمه النواميس الكونية الإلهية، وهو ما يطلق عليه في عصرنا الحالي بـ"النظام الأيكولوجي" (Ecosystem). وإذا حدث تغير مقصود أو غير مقصود في أي عنصر من عناصر البيئة -سواء في خصائصه الكمية أو النوعية- فإنه يؤدي إلى تدهور مظاهر الحياة، وربما تختفي مظاهر الحياة تمامًا، يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾(الدخان:٣٨). ويعد الإنسان جزءًا متميزًا من هذا الكون الذي تُكمل عناصره بعضها بعضًا، وله موقع خاص بين أجزائه. وصلة الإنسان بالكون كما وصفها القرآن الكريم، هي صلة الاستثمار والانتفاع والسكن والتعمير والمتعة وتذوق الجمال والتسخير... هي صلة الاعتبار والتأمل والتفكير بالكون وما فيه... وعلى ذلك فعمارة الأرض وإصلاح الكون وتذليل كل الصعاب فيه، والحفاظ على بيئة الإنسان -جميلةً ونظيفةً- مطلب إسلامي

أصيل يدخل في صلب رسالة الإنسان في هذه الحياة، باعتبار الإنسان وسيلة وغاية، وبوصفه أحد مكونات الكون الفاعل في النظام الأيكولوجي، والمسؤولَ عن إدارتها وحمايتها واستثمارها على وفق الموجهات الأساسية الواردة في القرآن الكريم.

وصيانة البيئة والمحافظة عليها، واجب مقدس من واجبات الإنسان وفرض عين على كل مؤمن، لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(لقمان:٢٠). وحذر الله تعالى من الإساءة في استخدام البيئة وإفسادها في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(البقرة:٢١١).

فالعلاقة بين الإنسان وسائر المكونات، هي علاقة محبة متبادلة لا علاقة عداء واستئثار وإهمال واستعباد للآخر. والرسول الكريم ﷺ في حديثه الشريف يقول: "هذا جبل يحبنا ونحبه" (رواه البخاري)، هذا الحديث الشريف يصلح شعارًا وإطارًا لعلاقة الإنسان بالبيئة.

ويحمّل الإسلام الإنسانية مسؤولية المحافظة على البيئة، ويظهر ذلك من قوله ﷺ: "مثل القائم على حدود الله كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا" (رواه البخاري).

إن موقف الإسلام من البيئة وموارد الحياة وأسبابها، موقف إيجابي، فكما يقوم على الحماية ومنع الإفساد، يقوم أيضًا على البناء والعمارة والتنمية، وهذا يتجلى في فكرة إحياء الموات وعمارة الأرض بالزراعة والغرس والبناء، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(هود:٦١)، ويقول ﷺ: "إذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليفعل" (رواه الإمام أحمد)، وقال الإمام علي ﷺ: كُلْ هنيئًا وأنت مصلح غير مفسد ومعمر غير مخرب.

موقف الإسلام البيئة هو موقف إيجابي، فلا يجوز للإنسان إفساد البيئة بإخراجها عن طبيعتها الملائمة لحياة الإنسان وقراره فيها، كما لا يجوز استثمار تلك الموارد أو الانتفاع بها بشكل مسرف وغير رشيد يفسد أو يعرض أقواتها وموارها للفساد والتشويه.

إن إصلاح الحياة الإنسانية والطبيعية، والمحافظة على النظام الحيوي ومنع إفساده، ينبغي أن يتحقق وفق القواعد الكلية الشاملة لإصلاح الحياة، وتسييرها تبعًا لمبادئ الاستخلاف المرتكز على الإيمان والعبادة والقواعد الفقهية وأصولها وأحكامها، وعلى وفق الأخلاق بوصفها جوهر الإسلام وروحه الفاعلة في جميع جوانبه لقوله ﷺ: "إنما بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق" (رواه الإمام أحمد).

ولتحديد الرؤية الإسلامية للبيئة وعلاقة الإنسان بها، تبدو الحاجة إلى أهمية توضيح المبادئ والمفاهيم الأساسية المنبثقة من القرآن الكريم، والتي تشكل في مجموعها ملامح الفلسفة الإسلامية للثقافة الإسلامية، يمكن إيجازها كالتالي:

١- الاستخلاف

الاستخلاف هو خلافة الإنسان في الأرض (البيئة)، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠)، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(الأعراف:١٢٩).

فهي إذن خلافة رعاية وإعمار وإدارة وتسخير أصبحت بها الخلائق والكائنات في إمرة الإنسان، حيث أصبح قائمًا بها في موضوع الوصاية والنيابة عن الله ﷻ في التصرف في الكون وفي البيئة بما فيها؛ لأن الإنسان أرقى هذه المخلوقات، ولأن الله ﷻ خصه بنعمة العقل التي حُرم منها بقية المخلوقات وفضله عليها في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠). والاستخلاف يعني أن الإنسان وصي على الأرض (البيئة)، لا مالك لها، فمن المعروف أنه ليس هناك ملكية مطلقة للإنسان. فالملكية في الإسلام محددة بضوابط وشروط حددها الله ﷻ، ومن هذه الشروط حسن استغلالها وتنميتها والمحافظة عليها من أي

تدمير أو تخريب. عن سعد بن زيد ﷺ قال: قال الرسول ﷺ: "من أحيا أرضًا ميتة فهي له" (رواه الترمذي)، ويروى عن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ قوله: من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين ولم يعمرها فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها.

فالكون هو أمانة الله ﷻ للإنسان، ولذا يجب أن يتصرف في حدود الأمانة التي وهبه الله إياها مراعيًا في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢).

إن إصلاح الحياة الإنسانية والطبيعية، والمحافظة على النظام الحيوي ومنع إفساده، ينبغي أن يتحقق وفق القواعد الكلية الشاملة لإصلاح الحياة، وتسييرها تبعًا لمبادئ الاستخلاف المرتكز على الإيمان والعبادة، والأخلاق بوصفها جوهر الإسلام وروحه الفاعلة في جميع جوانبه.

وفي هذا الإطار تصبح البيئة أساسًا لاختبار الإنسان، فهو مكلف بأن يفهم الطبيعة ودورها.

ومن منطلق خلافة الإنسان على الأرض، فهو مسؤول عن تسخير الكون والكائنات بما فيه النفع، ومَدعوٌّ إلى العمل والسير في دروب الكون ومناكبه، ومطالب بالسعي والإبداع والإعمار باعتباره -من منطلق الخلافة- هو صاحب الشأن والكلمة في الكون، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾(المؤمنون:١١٥)، ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(الأعراف:١٢٩).

٢- اعتبار الحلية والحرمة

إن الحلال والحرام مفهومان يحكمان البيئة من وجهة النظر الإسلامية. فالحلال يشمل كل ما هو نافع للإنسان ولمجتمعه ولبيئته وللأجيال القادمة، والحرام يشمل كل ما من شأنه تدمير الإنسان وبيئته، لقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(البقرة:٦٠)، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾(البقرة:١٩٥). فكلما سلك الإنسان بعيدًا عن السلوكيات التي رسمها الله ﷻ، حصلت الكوارث والمآسي، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾(الروم:٤١). والقاعدة الفقهية "ما أدىّ إلى الحرام فهو حرام"، قاعدة تحذرنا من مغبة السعي إلى أي صورة من صور الإفساد والتدمير والتخريب لبيئتنا.

وقد بين الله تعالى ما هو حلال وما هو حرام، ليكون خليفته في الأرض على بيّنة في تعامله مع نفسه ومع الآخرين، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(آل عمران:١١٠). وإذا أمعنا النظر في بعض آيات القرآن الكريم التي تذكر الطيبات، وجدناها كأنها موجهة للرد على من يستهين بهذا المتاع الطيب ويرى منها شيئًا لا معنى له ولا أهمية، حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۞ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾(المائدة:٨٧-٨٨). وقد نهى الرسول ﷺ عن الأذى، واعتبره من المحرمات؛ عن حذيفة بن أسيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من آذى المسلمين في طريقه وجبت عليه لعنتهم" (رواه الطبراني). فالتعدي على حق الطريق لإشغاله أو تضييقه أو وضع الفضلات والمعوقات في طريق المارة أو مضايقتهم من قبل الجالسين على قارعة الطريق بالألفاظ الجارحة، أمر يتنافى مع جوهر الإسلام وسماحته، فهو الذي وضع للطريق قانونًا وشرع له على الناس حقًا، وجعل إماطة الأذى عنه صدقة... فعن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "اتقوا الملاعن الثلاثة"، قالوا: يا رسول الله وما هي، قال: "البراز في الموارد وعلى قارعة الطريق وفي أماكن الظل". (رواه أبو داود). وقد اقترن الخير بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(آل عمران:١٠٤).

ولعل اقتران الحلال بالحرام يعطي هذه الدلالة في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾(البقرة:٢٧٥)، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾(الأعراف:١٥٧).

٣- النهي عن الإفساد والإسراف

إن كل ما يؤدي إلى فساد الحياة من إتلاف مكونات البيئة

وقتل الأنعام وتلويث المياه وقطع الأشجار لغير مصلحة عامة، يعتبر فسادًا والله لا يحب الفساد ولا المفسدين، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(القصص:٧٧)، ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(العنكبوت:٣٦)، ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾(الأعراف:٨٥).

إن الإفساد في البيئة يحدث عندما ينفك رباط العبودية لله تعالى، عندئذ ينسلخ الإنسان عن هداية الله فيضل ويشقى ويخاف ويحزن. وهي سلوكيات تحول حركته إلى تغير غير ممتزج بالعبودية، وتجعَل حماة البيئة ينكرون عليه سلوكه المفسد الذي أحدث ولا يزال يحدث مشكلات في البيئة، حتى أصبح يَصدُق عليه القول بأنه مشكلة البيئة.

أما الإسراف فهو ضد التوسط والاعتدال، إذ يريد الله تعالى عبادًا متوسطين معتدلين لا هُم بمعسرين ولا مسرفين، ويقول تعالى في ذم الإسراف والمسرفين:﴿وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(الأنعام:١٤١). وقد نهى الرسول ﷺ عن الإسراف في الأكل، لأنه مضر بصحة الإنسان من جهة، ومن جهة أخرى فالإسراف في الأكل يحجب الإنسان المسلم عن الشعور بمن حوله من الفقراء والمساكين؛ فقد روي عن الرسول ﷺ قوله: "ما ملأ آدمي وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسه" (رواه الترمذي).

فموقف الإسلام من البيئة هو موقف إيجابي، فلا يجوز للإنسان إفساد البيئة بإخراجها عن طبيعتها الملائمة لحياة الإنسان وقراره فيها، كما لا يجوز استثمار تلك الموارد أو الانتفاع بها، بشكل مسرف وغير رشيد يفسد أو يعرض أقواتها ومواردها للفساد والتشويه. ■

(*) كاتب وباحث جزائري.

المراجع

(١) أبو عبيدة القاسم ابن سلام، تحقيق محمد حامد الفقي: الأموال، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٥٣هـ.

(٢) الفلسفة التربوية البيئية، لسعدون سلمان نجم الحلبوسي، دار الهدى، مالطا ٢٠٠٢.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

الكون شعر منظوم

في الكون تدبَّرْ،
وفي الطبيعة تَفكَّرْ،
نشازًا لن تجد،
واختلالاً لن ترى...
مَوزونٌ كُلُّ شيء؛
كقصيدةِ شِعر،
وسمفونيةٍ رائعة اللحن...
فأظنّك تعلم،
أن التفكّر من أعظم العبادات...

* * *

أ.د. أحمد عبادي*

"إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا"

هذه بصيرة من بصائر القرآن الكريم، تبصّر الإنسان بقيمة وثقل هذا القول الملقى إليه من رب العالمين ﷻ، وهي قوله جلّ وعزّ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾(المزمل:٥).

تتضمن هذه الآية المباركة مفهومًا محوريًا هو مفهوم الإلقاء؛ والإلقاء في القرآن المجيد يبرز باعتباره للتحلية: ﴿فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾(الزخرف:٥٣)، والأساورة كما هو معلوم تستعمل للتحلية مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾(الحج:٢٣). كذلك يبرز "الإلقاء" مفهومًا للدمغ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾(الأعراف:١١٧)، فالإلقاء هنا هو ذاكم الذي من شأنه أن يدمغ كل باطل: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾(الأنبياء:١٨). مفهوم الإلقاء إذن، فيه معنى التحلية ومعنى الدمغ، غير أن الإلقاء على سيدنا رسول الله ﷺ يستبطن معنى آخر مفاده، أن هذا القول الثقيل الذي قال الله ﷻ في حقه: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾(الحشر:٢١)، نزل على رسول الله ﷺ ليَعْبُر منه إلى العالمين. فمرور هذا القول الثقيل من الذات النبوية الشريفة التي كانت تعاني أيما معاناة من تنزل هذا القول الثقيل، لطّفه بإذن الله تعالى، فأصبحنا نحن بمحدودياتنا متعدّدة الأبعاد وأضرب الضعف التي تعترونا، قادرين على تلقّيه، وقادرين على سماعه. ومن تجليات شدّة وطأة القول الثقيل على الذات النبوية الشريفة، أنه حين نزلت

سورة الأنعام[1] كان رسول الله ﷺ فوق راحلته فبركت به وسُمعت لعظامها طقطقة.[2] وعن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى عليه: ﴿لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾(النساء:٩٥)، قال فجاءه ابن أمّ مكتوم وهو يُمِلُّها عليَّ، فقال يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدتُ -وكان رجلاً أعمى- فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ وفَخِذُه على فَخِذي، فثقُلتْ عليَّ حتى خفتُ أن تَرُضّ فخِذي ثم سُرِّيَ عنه فأنزل الله ﷻ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ (رواه البخاري)، مما يدل على أن هذه الذات النبوية الشريفة كانت تعاني حسًّا ومعنىً من ثقل هذا القول المبارك الكريم. لقد كان يوحى إليه عليه الصلاة والسلام في اليوم الشديد القر، وإن جبينه ليتفصّد عن مثل الجمان، أي إن عرقه ﷺ كان يشبه اللؤلؤ في كبر حجمه بأبي هو وأمي ﷺ. قالت عائشة رضي الله عنها:"ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحيُ في اليوم الشديدِ البرد فَيَفْصِمُ عنه، وإن جبينَه لَيَتَفَصَّدُ عرَقًا" (رواه البخاري).

القول الثقيل نزل على رسول الله ﷺ ليَعْبُر منه إلى العالمين. فمرور هذا القول الثقيل من الذات النبوية الشريفة التي كانت تعاني أيما معاناة من تنزل هذا القول الثقيل، لطَّفه بإذن الله تعالى، فأصبحنا نحن بمحدودياتنا متعدّدة الأبعاد وأضرب الضعف التي تعتورنا، قادرين على تلقّيه، وقادرين على سماعه.

الثقل المعنوي

فمفهوم الثقل في هذه البصيرة المباركة يتضمّن الثقل المعنوي، إذ إن هذا القول قول من أحاط بكل شيء علمًا، يقول سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾(يوسف:٣)، كما يقول سبحانه: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾(الزمر:٢٣)، ويقول عز من قائل: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾(الزمر:٥٥)، فهذا القول منتقى عصارة ما في هذا الوجود من حكمة. فصيغة التفضيل "أحسن" فيها، أن رب العزة الذي عنده خزان الوجود وما هو فيه، وما كان فيه، وما لو كان فيه كيف كان سيكون، ما كان وما سوف يكون في المستقبل، رب العزة ﷻ ينتقي لنا أحسن ما في هذا الخزان، ينتقي لنا أحسن الآيات، أحسن الأمثال. وللاستبصار بدقة هذا الملمح نستعرض المثال الآتي، ولله المثل الأعلى: فحين تُكلم شخصًا ذا خبرة في مجال معيّن، فإن قوله يكون متسمًا بالتركيز، ويكون متسمًا بالدسامة، وبالتبع يكون متسمًا بالثقل. فليس قول ذي أو ذات التجربة في مجال معيّن كقول غير ذي أو ذات التجربة في هذا المجال نفسه، فكيف بالله ﷻ خالق كل شيء وربه سبحانه ومليكه. إن قوله جلّ وعلا ثقيل بهذا الاعتبار المعنوي، كما أنه ثقيل باعتبار قيمته، إنه قولٌ حين يُتملّك من قبل هذا الإنسان، ويُستَدْرَجُ منه بين الجنبين، كما قال عليه الصلاة والسلام: "مَنْ قرأ القرآن فكأنما اسْتَدْرَجَ النبوةَ بَيْنَ جَنْبَيه، غيرَ أنه لا يوحى إليه"،[3] تعلو قيمته، وقد كان الصحابة ﷺ إذا حفظ الرجل منهم الزهراوين (البقرة وآل عمران) يجل في أعينهم. ويستفاد ذلك من حديث أنس بن مالك ﷺ: "عن أنس، أن رجلاً كان يَكْتُب للنبي ﷺ، وقد كان قرأ: البقرة، وآلَ عمران، وكان الرجل إذا قرأ: البقرة، وآلَ عمران، جَدَّ فينا - يعني عَظُمَ" (رواه الإمام أحمد). لأن هذه الحكمة التي في القرآن المجيد، وهذه العصارة، وهذه القابلية للهداية للتي هي أقوم، حين يُستدمج كل ذلك ويُستدرج بين الجنبين، فإن قيمة المُستدمِج والمُستدرِج تعلو، ويصبح جليلاً سواء أدرك الناس ذلك أم لم يدركوه. كما أن الثقل في هذه البصيرة المباركة يفيد الثقل من حيث الفاعلية، حيث يتّسم بالفاعلية في فتح السبل، وإنارة الدروب، والأخذ بيد الإنسان نحو الأكثر نجاعة ونحو الأكثر إنتاجية والأكثر حكمة.

الثقل في القدرة على الدحض

ومن معاني الثقل في هذه البصيرة المباركة أيضًا، الثقل في القدرة على الدحض، لذلك سمى الله ﷻ الحجج دون حجة كتابه بـ"الداحضة": ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾(الشورى:١٦)، أي أنها مدحوضة لثقل هذا القول، حيث يتنزّل هذا القول الثقيل على التلبيس وعلى التمويه، وعلى الباطل وعلى الفساد، وعلى الخطأ فيدحض كل ذلك، ويخلص منه ويبدده، فالثقل في هذه الآية الكريمة وارد بهذا المعنى كذلك.

الثقل من حيث القطع والحسنات

كما أن من تجليات الثقل في هذه البصيرة، الثقل من حيث

القطع؛ حين يكون الناس مختلفين، يتناقشون ويتباحثون ويتدارسون ويتجادلون، ثم يأتي قول الله ﷻ، فيقطع قول كل قائل آخر، لثقله ولبنائيته، ولكونه يستدرج كل هذه المحددات المنهاجية التي تجعله قادرًا على القطع والبتر مع كل خطإ ومع كل بهرج.

ومن معاني الثقل في هذه البصيرة الجليلة، ثقل هذا القول من حيث الحسنات، لقوله ﷺ: "من قرأ حرْفًا من كتاب الله؛ فله به حسنة، والحسنة بعشْرِ أمثالها، لا أقول: (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف" (رواه البخاري)، ويقال لقارئ هذا القول الثقيل يوم القيامة: "اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرأ بها" (رواه أبو داود). وأما من عمل به فذاك متبوّؤه من الجنة حيث يشاء، قال تعالى في حق العاملين بهذا القول الثقيل وعلى لسانهم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾(الزمر:٧٤). فهو قول ثقيل في ميزان الحسنات: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾(الأعراف:٨-٩)، قول ثقيل في ميزان رب العزة، حيث ترجح كفة من أُكرم بهذا القول واستدرجه بين جنبيه، ثم عمل به من حيث الحسنات ومن حيث الأجر العظيم.

إن الله ﷻ سمى كتاب موسى وهارون عليهما السلام بالكتاب المستبين، وسمى القرآن المجيد بالكتاب المبين، ولذلك كان هذا القرآن إمام الكتب، وكان المرسل به عليه الصلاة والسلام لثقل القول الذي أنزل عليه، هو الإمام الذي أكرمه الله ﷻ بإمامة الأنبياء جميعًا.

الثقل من حيث قدرته على شفاء ما في القلوب

هذا القول أيضًا ثقيل من حيث قدرته على شفاء ما في القلوب وإحيائها: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(الإسراء:٨٢)، فحين يستقر هذا القول الكريم في قلب المؤمن أو المؤمنة، فإنه لا يمكن أن يتزاحم معه هناك لثقله شيء آخر، من شبهة أو شهوة أو نزغة أو نفثة أو غير ذلك، حيث يملأ هذا القول المبارك القلب فيخبت له ولا يترك مكانًا لسواه أو لغيره، مصداقًا لقول الله ﷻ: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾(الحج:٥٤).

الثقل من حيث تمكين الإنسان من الاعتبار

ثقيل هذا القول كذلكم من حيث تمكينه الإنسان من الاعتبار: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾(الحشر:٢)، فسفينته لا يمكن أن تعترضها أساطيل الشبهات ولا المغالطات، إذ عندها القدرة على شق طريقها من عدوة إلى أخرى، من عدوة الجهل إلى عدوة العلم، من عدوة الحيرة إلى عدوة الهداية، من عدوة الشك إلى عدوة اليقين... إنها سفينة قادرة -بإذن العلي الكريم- على مخر المياه الفاصلة بين هذه العدوات لثقلها، والسفينة كلما كانت أثقل، كانت أقدر على مخر عباب البحر ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾(يونس:٢٢).

الثقل والرجحان حين المقارنة مع الكتب السابقة

كما أن من معاني الثقل في هذه البصيرة الكريمة، الثقل والرجحان حين المقارنة مع الكتب السابقة، فالله ﷻ سمى كتاب موسى وهارون عليهما السلام بالكتاب المستبين: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾(الصافات:١١٧)، وسمى القرآن المجيد بالكتاب المبين: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾(النمل:١)، ولذلك كان هذا القرآن إمام الكتب، وكان المرسل به عليه الصلاة والسلام لثقل القول الذي أنزل عليه، هو الإمام الذي أكرمه الله ﷻ بإمامة الأنبياء جميعًا، كما ثبت في حادثة الإسراء والمعراج المباركة. فقد أخرج مسلم من حديث الإسراء قوله ﷺ: "وقد رأيْتُنِي في جماعةٍ من الأنبياء (...) فحانت الصلاة فأَمَمْتُهُمْ" (رواه مسلم)، فهو قول ثقيل بالمقارنة مع النبوات السابقة والسالفة.

الثقل في حوار الإنسان مع ذاته

ثقيل هذا القول أيضًا في حوار الإنسان مع ذاته، فالإنسان ليس وحدة مفردة، وإنما هو يُكِنُّ جملة من الوحدات الأخرى، فهناك الروح، وهناك النفس، وهناك الملك، وهناك القرين، وهناك شياطين الجن والإنس، وهناك المحيط العام، وإيحاءات هذه الأصوات الشتى التي تؤثث باطن الإنسان تظهر وتلوح كما لو كانت متساوية من حيث وزنها ومن

حيث حجيتها، داخل ذات الإنسان. وفي إطار كل هذه الوحدات المكونة له حين يتدخل هذا القول الثقيل، فإن برد اليقين يحل بقلب المرء ولا يبقى، كما قال الله ﷻ: ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾(الزمر:٢٩)، وإنما يصبح "سَلَمًا" لله رب العالمين، ويصبح أقدر على أن يدخل في السلم كافة، قال ﷻ: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ۞ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ ۞ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(الأعراف:٢٠٠-٢٠٤).

الثقل من حيث التحدي

أختم هذا القول عن القول الثقيل، بالإشارة إلى أن من معاني الثقل أيضًا، ثقل هذا القول العظيم من حيث التحدي الذي قد تحدى الله ﷻ به الجن والإنس: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة:٢٣). هذا التحدي قائم منذ أربعة عشر قرنًا، وقد شهد التاريخ ما وقع للذين سولت لهم أنفسهم أن يزاحموا في هذا المضمار، أو أن ينافسوا هذا القول الثقيل. ولذلكم فإن هذا الثقل ينصرف لكل هذه المعاني وزيادة، فهو الدواء، وهو البلسم، وهو الشفاء، وهو الرقية المباركة التي حين تدخل ذات الإنسان فإنها لثقلها تقضي على الأدواء وعلى الأمراض كلها: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾(فصلت:٤٤).

نسأل الله جل وعز أن يشفينا بهذا القول الثقيل من كل أدوائنا وأَضْرُب ضُرِّنا الظاهرة والباطنة. آمين. ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش

(١) عن ابن عباس: "نزلتْ سورة الأنعام جملةً بمكةَ لَيْلا وحَوْلَها سبعون ألفَ ملَكٍ يَجْرُون حولها بالتسبيح". أخرجه الطبراني في المعجم الكبير(١٢/٢١٥).

(٢) قال سفيان الثوري، عن ليث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد: نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ جملة [واحدة] وأنا آخذة بزمام ناقة النبي ﷺ، إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة. انظر تفسير سورة الأنعام عند ابن كثير.

(٣) حديث مرفوع أورده السيوطي في باب فضائل القرآن.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

عالَم الطفولة

البراءة كلُّها،
في طفولة الأطفال،
في ربيع ابتساماتهم،
في نضارة عيونهم...
إنهم ربيعنا القادم،
وبلابل أرواحنا على أفنان الأيام...
إذا غرَّدوا، أشاعوا السرور،
واستفتحوا نافذة على الغد المأمول،
والوصال الآتي...

* * *

د. عبد الوهاب بوخلخال*

الهجرة

نقطة انطلاق الأمة

من أعظم الأحداث المفصلية في تاريخ أمة ما، بعثة نبي، ونزول الوحي، فهي لحظة فاصلة تفصل بين مرحلتين من مراحل التاريخ فصلاً أخطر من أي حدث تاريخي آخر... من أجل هذا، وجدنا عناية القرآن الكريم "بتاريخ النبوة"، وجعلها نقاطًا مفصلية في مسيرة البشرية.

فالتاريخ بالمنظور القرآني، مقسم إلى حقب بحسب بعثة الأنبياء، والفعلُ الإنساني يمتد منذ آدم عليه السلام على خطين؛ خط النبوة، وخط مناهضي النبوة، أو بتعبير القرآن "الصراط المستقيم" و"سبل الضلال".

ومن هنا تأتي أهمية الحقبة التي تظللها نبوة نبي من الأنبياء، لأنها -بشكل أو بآخر- تلخص قصة البشرية ومشاهد التدافع بين الحق والباطل.

ونحن كمسلمين، ينبغي أن نعي هذه الحقيقة حال تعاملنا مع سيرة رسول الله ﷺ. فهي وإن كانت جزءًا من تاريخ الإسلام العام، فإنها تمتاز بما لا نجده في غيرها من أدوار ذلك التاريخ.

ذلك أنها تشكل مرحلة التأسيس بمختلف تجلياته الاجتماعية والمعرفية والتشريعية والحضارية.

• فالمرحلة النبوية هي منطلق التأسيس للمجتمع الإسلامي الأول، فهذا تأسيسها الاجتماعي.

• وهي أول تجربة بشرية في أدوار تاريخنا الإسلامي تعامل فيها العقل مع النص لفهمه وتنزيله على الواقع، وهذا تأسيسها المنهجي والمعرفي.

• وهي المجال الزمني الذي كانت فيه النصوص مساوقة للواقع، متفاعلة بشكل مباشر مع أحداثه وأنشطة أصحابه، بينما

كل الأدوار التالية على هذه المرحلة حكَمَتْها قاعدةُ: "النصوصُ متناهية والوقائع غير متناهية"، وهذا هو تأسيسها التشريعي.

• وهي المرحلة التي وضعت فيها القيم التي انتقلت بالعرب من طور القبيلة إلى طور المجتمع والأمة، ومن أفق البداوة إلى أفق الحضارة. فكل ثمرة حضارية أتت من بعد، إنما هي من شجرة بذورها الأولى غُرست في تربة المرحلة النبوية، وهذا هو تأسيسها الحضاري.

فالسيرة النبوية بأحداثها -خصوصًا المفصلية منها- تُشكّل كمال التجربة الإسلامية، والأفق الذي ترنو إليه العقول إن هي أرادت أن تتعامل مع هداية الوحي فهمًا وتنزيلاً. وهذا في اعتقادنا، هو التصور العميق لمفهوم "اتباع السنة النبوية"، لا ذاك الذي يقف عند حدود التجربة النبوية في مستوى تعاملاتها مع جزئيات الواقع دون الارتفاع إلى الأصل الذي ينتظم تلك الجزئيات.

بهذه الرؤية، رؤية التاريخ من زاوية الوعي الحضاري، ورؤية السيرة النبوية من زاوية الإدراك الواضح لخصائصها التأسيسية، سيكون وقوفنا مع حدث قد يكون ثاني حدث "مفصلي" في تاريخ الإسلام بعد حادثة نزول الوحي، أعني بذلك حدث الهجرة النبوية.

الهجرة ومستويات القراءة

أشرنا إلى أن حدث الهجرة قد ترتفع به القراءة الواعية إلى مستوى حدث نزول الوحي، ومما يعزز هذا الزعم أننا نجد خاصية التأسيس تنطبق على الحدثين، باعتبار أن الأول دشن مرحلة البدء لرسالة الإسلام في آخر تجلياتها، وأن الثاني دشن مرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإسلامية وهي المرحلة المدنية.

وكما أن التاريخ لم يبق على ما هو عليه منذ لحظةِ تلفُّظ جبريل عليه السلام بكلمة "اقرأ"، فإن التاريخ أيضًا لم يبق على ما هو عليه منذ لحظة وصول سيدنا محمد ﷺ إلى المدينة مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وأهمية الهجرة تجليها قراءة الحدث من خلال المستويات التالية: مستوى الحدث التاريخي، ومستوى المنهج، ومستوى الاعتبار (استشراف المستقبل).

أولاً- القراءة على مستوى الحدث التاريخي

بأن ننظر للهجرة كحدث وقع في زمان ومكان محددين، وتم بشخصيات ساهمت في صناعته، وكان ضمن سياق أحداث أخرى مهدت له، وأحداث نتجت عنه. وهذه قراءة تستهدي بما ورد من إشارات في القرآن الكريم حول حادثة الهجرة، وبما صح من روايات في كتب الحديث والسير.

وفي هذا المستوى، نجد تعليق القرآن عن الحدث موجزًا، معجزًا كعادته، يمزج في كلمات قلائل بين البعد التاريخي للحادثة وجذورها الإيمانية وتجلياتها التشريعية في بيان علاقة المسلم -في كل زمان ومكان- بصاحب الهجرة ﷺ ودينه، فيبدو الحدث موجودًا في الزمان، متعاليًا عليه في الوقت ذاته، يخاطب أجيال المسلمين في كل وقت إلى أن تنتهي هذه الدنيا، يقول تعالى: ﴿إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾(التوبة:٤٠).

فالآية في بُعدها التاريخي، تؤرخ لفعل "الإخراج" الذي تَعرَّض له النبي ﷺ، فهي تتحدث عن "انتقال" طبع المرحلة التي أتت بعد ذلك الحدث، يمكن تلمسه في الجوانب التالية:

أ-انتقال في الزمان: إذ فصل الحدث بين زمنين، زمن امتد من بعثة الرسول ﷺ إلى لحظة الإذن له بالهجرة، وهي مرحلة الدعوة المكية بما لها من مقدمات وإرهاصات، بدأت منذ ولادته ﷺ وانتهت زمانيًا على مشارف المدينة المنورة. وزمن امتد من لحظة وصوله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة وانتهى بالتحاقه بالرفيق الأعلى، وهي مرحلة الدعوة المدنية بما فيها من ملاحم وأحداث. فصرنا بعدها نقول: "ما قبل الهجرة وما بعد الهجرة".

وهذا انتقال كان له أثره البالغ في طبيعة التشريع ومضامين الآيات والسور التي انقسمت إلى قرآن مكي تمحور حول أصول الإسلام عقيدة وشريعة وخلقًا، وقرآن مدني تمحور حول توفير الأرضية التشريعية لبناء المجتمع والأمة والحضارة، فكان التوسع في كل ما يحتاج إليه الإنسان من تشريعات مبينة للعبادة أو ضابطة للسلوك أو مقننة لشؤون المجتمع في السلم والحرب.

ب-انتقال في المكان: وهو الخروج من مكة "أم القرى"، تلك التي كان يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان ببركة البيت العتيق، ولكنها كذبت صاحب الرسالة ﷺ وردّت الحق في عناد وتكبر، فكانت العقوبة كما يقول الشيخ الغزالي -رحمه الله- أن "حرم مشركو مكة الخير كله مذ جحدوا الرسالة وقعدوا بكل

صراط يوعدون، ويصدون عن سبيل الله من آمن به ويبغونها عوجًا"،[1] فكان الخروج من "القرية الظالم أهلها" إلى قرية كانت "يثرب"، فصارت "المدينة المنورة" و"طيبة الطيبة".[2]

والمكان الجديد إنما كان باختيار رباني لا باجتهاد بشري، ولقد حاول الرسول ﷺ أن يتدبر أمر المكان فذهب إلى الطائف -وهي إحدى القريتين العظيمتين في ذلك الزمان- ولكن يبدو أن تنافسها مع مكة لم يكن مقتصرًا على التجارة وتكديس المال، وإنما تعدى ذلك إلى التباري في القسوة وردّ الحق، فكان ما كان من صدود أهل الطائف وجحودهم، وكان ما كان من أحداث مهدت الطريق إلى المدينة.

والانتقال من مكة إلى المدينة، لم يكن مجرد انتقال من مكان إلى آخر، وإنما انتقال من بنية اجتماعية إلى بنية أخرى. وهذا كان له تجلياته في تشريعات الوحي التالية على هذا الانتقال.

فـ"مكة" كانت مُشكَّلة أساسًا من المؤمنين وهم الأقلية الذين استجابوا لدعوة الرسول ﷺ، ومن المشركين وهم الأغلبية الذين ناصبوه العداء. أما المدينة فكانت الأغلبية فيها للمؤمنين الخُلّص "مهاجرين وأنصارًا، معهم طائفة تظهر لأول مرة على مسرح الأحداث وهم "المنافقون"، إضافة إلى جماعات يهودية ذات نفوذ اقتصادي، وتعالٍ ثقافي بما لهم من تحكم في الأسواق، وبما بقي لديهم من ميراث النبوات السابقة وسط مجتمع عربي أمي.

وهذا التغير في طبيعة المجتمعين، يتجلى في حديث القرآن بعد الهجرة عن المنافقين، وفصول كيدهم للحق من داخل الصف الإسلامي، وكذا الحديث عن أهل الكتاب وصفاتهم وصنوف كيدهم وخداعهم الديني (إخفاء حقيقة النبوة وأحكام الشريعة الموسوية)، ومكرهم السياسي والعسكري (تآمرهم على قتل الرسول ﷺ وتحالفهم مع المشركين والمنافقين).

جـ-انتقال في البنية الاجتماعية: ونعني بالبنية الاجتماعية؛ تركيبة المجتمع الإسلامي بما لها من خصائص مادية ومعنوية. فالهجرة غيرت ملامح الجماعة الإسلامية الأولى، وطبيعة علاقتها بذاتها وبما يحيط بها، ويمكن أن نتبين هذا التغيير من خلال المظاهر التالية:

• **الانتقال من الضعف إلى القوة:** فلئن كانت المرحلة المكية اعتمدت على الإيمان قوةً وحيدة تمنح صاحبها القدرة على التحمل والمواجهة، فإن هذا الإيمان أضيف إليه في المرحلة المدنية قوةُ التضامن الأخوي والمنعة المادية التي وفرها الأنصار لإخوانهم المهاجرين وفاءً بما عاهدوا عليه الرسول ﷺ في بيعة العقبة الثانية.

• **انتقال من الجماعة إلى الدولة:** وهذا كان له أثر بالغ في السلوك السياسي للفرد العربي، فلأول مرة، تنشأ في تاريخ العرب دولة تقارب في مفهومها الأشكال الحضارية للدولة، بعد أن عرف في تاريخه القديم أشكالاً باهتة للدولة، لا تعدو أن تكون تابعة لإحدى القوى الأجنبية.

• **الانتقال من أفق القبيلة إلى أفق المجتمع والأمة:** وهي نقلة جبارة في ميزان الأمم والشعوب، فأن يخرج الإنسان العربي من سجن القبيلة وتقاليدها وقوانينها، لا ليكون صعلوكًا -كما فعل بعض شعراء العرب- وإنما ليبني ما هو أرقى من القبيلة وروابطها. فهذا يتطلب تغييرًا عميقًا على مستوى الأفكار والتصورات، بل على مستوى الأحاسيس والعواطف أيضًا. وبكلمة موجزة، يتطلب إنسانًا جديدًا لا صلة له بإنسان الجاهلية، وهذا ما فعله النبي ﷺ ودأب عليه منذ لحظة نزول الوحي؛ بناء الإنسان الجديد.

وهذا الانتقال البنيوي بمظاهره الثلاثة، يجسده رمزيًّا ما فعله الرسول ﷺ ساعة مقدمه إلى المدينة، إذ بادر إلى بناء المسجد، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وكتابة الوثيقة، وهي إجراءات ثلاثة تترجم الأسس التي أرساها عليه الصلاة والسلام للمجتمع الإسلامي؛ "صلة الأمة بالله، صلة الأمة بعضًا بالبعض الآخر، صلة الأمة بالأجانب عنها ممن لا يدينون دينها".[3]

ثانيًا- القراءة على مستوى المنهج

السنة -والسيرة جزء منها- تشكل الجانب التطبيقي للمنهج الذي أنزله الله تعالى في كتابه، فلا مناص للمسلم الذي يبتغي الاستهداء بهدي النبوة، من ضرورة اقتفاء المسلك النبوي، استجابة لأمر الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾(الأحزاب:٢١).

والاقتداء يصبح أكثر ضرورة بالنسبة للحركات التي تبتغي التغيير رافعة شعار الإسلام فكرة ومنهجًا، وتطمح للوصول إلى ما وصل إليه النبي ﷺ قبل قرون بفكرته ومنهجه.

فالتاريخ والواقع، كل منهما يعلمنا أن حسن النية وجمال

الشعارات لا يغنيان في حركة التغيير الاجتماعي شيئًا ما لم يصحبهما فكر سديد ورؤية واضحة ووعي عميق بطبيعة المشكلة المراد تغييرها، ومراحل الطريق التي ينبغي قطعها كي نصل إلى الحل، وهذا ما توفره لنا الدراسة الحكيمة لمسلك النبي ﷺ في الحركة والتغيير.

وحدث الهجرة يضع أمامنا معالم بارزة، هي لكل متدبر منارات هادية، تعصمه من الضلال والزلل عند اختلاط السبل وتشعب المسالك والمناهج. فقراءة الهجرة من زاوية المنهج التغييري تعطينا المعالم التالية:

١-التكوين والإعداد قبل التمكين: فقد مكث النبي ﷺ أكثر من عقد في مكة، يربي الصفوة الأولى ويعّدهم ليكونوا حَمَلةَ المنهج الجديد فكرًا وممارسة. وما أظن أن أحدًا منهم طاف بخاطره أنه سيخرج يومًا من مكة ليبني دولة في المدينة، أو أنه سيعيش ليرى ثمرة تضحياته ومعاناته.

فتكوين الصفوة القادرة على أن تتحرك لإحداث التغيير، أمر جوهري يكاد يكون من السنن الاجتماعية الثابتة التي تحكم حركة كل المجتمعات عبر التاريخ. فما من ثورة أو تغيير إلا وكان الدور الأساس فيها لصفوة أو نخبة آمنت بمبدإ التغيير، وتمثلت الفكرة دون تفكير في مغنم أو مكسب.

ومن هنا لا يمكن أن نفصل حدث الهجرة عما سبقه، فهو كالنتيجة له، إذ كان بالإمكان أن تتم الهجرة في اللحظة الأولى التي كذّب فيها أهل مكة بالحق دون حاجة إلى تلك السنوات من العذاب والآلام، ولكن الأمر لم يكن عبثًا، وإنما اقتضته حكمة الله تعالى في جعل التكوين والإعداد مقدمًا على التمكين.

وإنه لدرسٌ بليغ للحركات الإسلامية التي تريد التغيير من منطلق الاقتداء بالمنهج النبوي، ثم في لحظة من لحظات السير، تغفل عن هذا المعلم الخطير فتتشوف إلى تمكين لمّا تُعَدَّ له بَعدُ عُدّتَه، إذ يُتعبها طول الطريق أو يغريها بريق مكسب سياسي عارض، فتندفع ضاربةً بهذه السنة عرض الحائط، فتكون النتيجة تجارب هزيلة أو مشوهة، تكون -في أغلب الأحيان- حجة يعترض بها العلمانيون والأنظمة المستبدة على فشل المشروع الإسلامي من الناحية المبدئية، وعلى عدم صلاحية الإسلام ليكون منهجًا يقود الحياة.

وهذا الخلل يستوي في الوقوع فيه أصحابُ المغالبة الذين لا يصبرون على معاناة الطريق، أو تغرهم قوة جماهيرية ضعيفة الصلة بالفكرة والمنهج، فيرومون اختصار الطريق بانتهاج العنف للوصول إلى السلطة، فيبدأ عملهم "جهادًا" وينتهي ببندقية عمياء وفتنة تحصد الأبرياء، وترسخ سلطان أهل الباطل والفساد، إذ تعطيهم حجة جديدة لتسويق أنفسهم في الداخل وإدامة دعمهم من الخارج. وأصحابُ المشاركة الذين تبهرهم معرفتهم الجديدة بآليات الحكم وطرق الوصول، أصحاب السلطة التي صاروا في الظاهر جزءًا منها إلى سلطتهم وطرق بقائهم فيها، فيحاولون -بوعي أو بغير وعي- تقليدهم واقتفاء آثارهم، وإن أضفوا على ذلك صبغة "التأصيل"، متخذين من مقولة "فقه الواقع" آلية لتبرير ما لا يبرر في أكثر الأحيان.

وإن وقع هؤلاء وأولئك في هذا الخلل كان الإفلاس وكان الفشل، لأن السنن لا تحابي أحدًا.

فإن تشوُّف الإنسان إلى التمكين قبل التكوين، إن هو إلا ضرب من العبث وشكل من أشكال الهزل في موطن الجد. والحياة لا يصنعها العابثون ولا يقودها من يختلط عليهم الجد مع الهزل.

٢-رجال المبدإ قبل رجال الدولة: وهو درس آخر من دروس الهجرة على مستوى منهج التغيير، يتعلق بطبيعة الإنسان الذي كُوّن لتقوم على كاهله أعباء الدولة الناشئة.

فإذا كانت المنهجية الإسلامية، تقوم أساسًا على مركزية الإنسان من حيث كونه هو المخاطب بالمنهج وهو المطبق له في الواقع، فإن الهدف السياسي من حركة التغيير والانتقال من طور الجماعة إلى طور الدولة، يجعل من التركيز على الإنسان مسألة غاية في الأهمية والخطورة.

والهجرة تنبهنا إلى هذا المعلم المهم، إذ يتضح -من خلالها- كيف أن النبي ﷺ ركز على تكوين رجل المبدإ قبل أن يفكر في رجل الدولة. وما النماذج -من رجال الدولة الأفذاذ- الذين ظهروا بعد ذلك على امتداد المرحلة النبوية ثم مرحلة الخلافة الراشدة، إلا ثمرة لهذا المسلك النبوي الحكيم. فهل كان بالإمكان أن يعلن النبي ﷺ عن تكوين دولة في المدينة، قبل أن يتمكن من إعداد الرجال الذين رباهم على المبادئ في مكة؟

فالدولة بما لها من مغريات السلطة، تتحول على أيدي من لم تتمكن المبادئ منهم ساحةً تُمارَس من خلالها كلُّ أشكال المفاسد السياسية والاقتصادية وحتى الدينية.

فللسلطة سلطانها على النفوس الضعيفة، ولا يوجد أضعف ممن يرفع شعارًا دون أن يصبح ذلك الشعار حقيقة ماثلة في ذهنه، ممتزجة بخلجات ضميره، متماهية مع سلوكه، وأنى له ذلك إن لم يتربَّ عليه؟!

فتأخير الحديث عن "الدولة" إلى أن تكتمل التربية على المبدأ، درس آخر بليغ تنبهنا إليه الهجرة حتى لا تقفز الحركات الإسلامية -وقد فعل البعض ذلك- في فراغٍ، ثم ترتد إلى أرض الواقع بتجارب مشوهة وعناصر أفسدتهم السلطة، وباعدت بينهم وبين الشعارات التي عرضوا أنفسهم بها أول مرة على الناس، ولا يزالون -وهذه من غرائبهم- يرفعونها.

٣-الهجرة في بعدها الأخلاقي والرمزي: وهذا مّعلم لا ينفك في حقيقته عن المعلمين السابقين، حينما نجد الرسول ﷺ ينبه بشكل واضح على استمرار الهجرة من خلال سلوك المسلم في كل زمان ومكان.

فلئن كانت الهجرة الأولى انتهت بفتح مكة فقال ﷺ "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية" (متفق عليه) ففاز بشرف الوصف بالمهاجر من فاز، فإن الهجرة في بعدها الرمزي والأخلاقي ذي الصلة بالمنهج، باقية مستمرة ما دام هنالك مسلم يسعى في كل زمان ومكان للتحرك وفقًا لذلك المنهج.

وهي الهجرة التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾(المدثر:٥)، ويؤكدها النبي ﷺ بشكل صريح: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه" (متفق عليه). فهي حركة دائبة للابتعاد عن كل سلوك منهي عنه، إن على مستوى حركة الفرد أم حركة المجتمع، وأيًّا كان مجال تلك الحركة دعوة أم سياسة، سلطة أم معارضة... ولعل البعد الرمزي والأخلاقي في علاقة المسلم بالمنهج، هو الذي نستشفه من ربط الحديث عن نصرة الرسول ﷺ/ منهجه، بحادثة الهجرة في الآية التي ذكرناها من قبل: ﴿إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾(التوبة:٤٠).

ثالثًا- القراءة على مستوى الاعتبار

ونعني بهذا، كيف نجعل من الهجرة نقطة انطلاق جديدة للأمة؟ وهذا هو مستوى الاعتبار الذي دعانا إليه القرآن كي نقرأ من خلاله الأحداث.

والفرق بينه وبين المستوى الثاني، أننا في هذا المستوى نحاول أن ننظر إلى الحدث من زاوية ربطه بحركة الأمة ككل، وهي تحاول استئناف حركتها واستعادة حضورها مرة أخرى في التاريخ.

ففي هذا المستوى تنبهنا الهجرة إلى عنصرين مهمين:

١- أن تكون حركتنا استئنافًا لا بداية صفرية؛ فكما كانت الهجرة خطوة غير منقطعة عما سبقها، وإن أحدثت تغييرًا عميقًا في مسيرة التاريخ الإسلامي، فحري بمن يسعى لإعادة الأمة أن لا يفكر في البدايات الصفرية، وإنما عليه أن ينطلق من مفهوم الاستئناف.

٢- أن نتعمق في معرفة المنهج الذي نسعى للتغيير من خلاله، وأن نتمثله تمثلاً متكافئًا مع أزمة الأمة؛ ذلك أن الهجرة تعلمنا كيف أن النبي ﷺ ربّى أصحابه الكرام على المنهج معرفة وتمثلاً... معرفة بحيث سُبقت الهجرة بإرساء الأسس العقدية والمعالم الكبرى للإسلام من خلال القرآن المكي، والعقيدةُ هي روح المنهجية الإسلامية أو -إذا شئنا- جوهر المشروع الإسلامي الذي طرحه النبي ﷺ بديلاً للواقع الجاهلي. فكانت المعالم العقدية واضحة في عقول ونفوس الصفوة الأولى من هذه الأمة، ثم كان التمثل لتلك التصورات الجديدة في الواقع بحيث أنشأت إنسانًا آخر، حاملاً للمشروع، قادرًا على مواجهة التحديات.

فالحركات التي تدعو إلى النهوض بالأمة وتغيير واقعها اليوم من منطلق المرجعية الإسلامية، عليها أن تعمق فهمها لهذه المرجعية حتى تكتمل لديها الرؤية الواضحة، ثم عليها -في المقام الثاني- أن تبني الإنسان الجديد القادر على منازلة الواقع بتحدياته، أي إنزال تلك الرؤية على الواقع، الإنسانَ الذي يحقق في نفسه الهجرة بكل أبعادها حتى يحدث نقلة فاصلة في حياة الأمة، تكون بالفعل فاصلاً بين مرحلة التخلف ومرحلة الانطلاق من جديد، كما كانت الهجرة نقطة انطلاق للأمة نحو آفاقها التأسيسية. ■

(*) كاتب وباحث جزائري.

الهوامش

(١) فقه السيرة، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة (الجزائر)، دت، دط، ص:١٥٠.

(٢) عن جابر بن سمرة قال: كانوا يسمون المدينة يثرب، فسماها رسول الله ﷺ "طيبة" (أخرجه مسلم)، (١٢١/٤).

(٣) فقه السيرة، ص:١٨٨.

د. عبد الواحد بوشداق*

من حقوق الحيوان في الإسلام

هل يـا تـرى كان للحيوان موقع فـي منظومة الأخـلاق الإسـلامية يومًـا؟ وهـل نـال مـن الحقـوق والرحمة بـه نصيبًا يليق بـه باعتباره مخلوقًا من مخلوقات الله في الأرض؟

جوابًـا عن هذه الأسـئلة، تتقـدم آية عجيبة مـن كتاب الله ﷻ لتخبرنا أولاً أن عالم الحيوان كعالم الإنسـان تمامًا بتمام، يقـول عـز من قائل: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِـي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾(الأنعام:٣٨).

يقـول سـيد قطب -رحمـه الله- معلقًا على هـذه الآية في "في ظلال القرآن": "إنه ما من دابة تدب على الأرض -وهذا يشـمل كل الأحياء من حشـرات وهوام وزواحف وفقريات- وما من طائر يطير بجناحيه في الهواء -وهذا يشـمل كل طائر مـن طير وحشـرة أو غير ذلك مـن الكائنات الطائـرة- ما من خلـق حي في هذه الأرض كلهـا إلا وهو ينتظم في أمة، ذات خصائـص واحـدة وذات طريقة فـي الحياة واحـدة كذلك... شأنها في هذا شأن أمة الناس". من هنا نعلم أن للحيوان حق الرحمـة كحق الإنسـان، وذلـك لما له مـن خصائص وطبائع وشعور لا تقل عما لدى الإنسان، وإلا فلا معنى لكلام رسول الله ﷺ -وحاشـاه- وهـو يسـتوصي بالحيوان خيـرًا حتى ولو كنت قائده للموت حين قال: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته" (رواه مسلم).

تسمية سور القرآن بأسماء الحيوان

وفي إشـارة لطيفة بموضوعنا هذا، نجد القرآن الكريم يحمل فيمـا يحمل سـورًا بأسـماء الحيوان؛ وذلك كالبقـرة والأنعام والنمل، ولم تكن هذه التسميات عبثًا، وإنما سميت بها ليلفت

إذا كانت البشرية -قديمًا وحديثًا- ذاقت وما تزال تذيق الناس ألوان التعذيب والتقتيل والمهانة، فإن الإسلام قد كرم هذا الإنسان أحسن تكريم، بل إنه لم يقف عند هذا، بل نجده قد حرم تعذيب الحيوان وجعل ذلك موجبًا من موجبات عذاب الله تعالى له.

سبحانه انتباهنا إلى الاهتمام بالحيوان، لكونه أولاً خلقًا من مخلوقات الله، وثانيًا لأنه مصدر من مصادر رزق الله لنا.

وقد أعلن رسول الله ﷺ هذه الحقيقة الكبرى حين قال: "لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها" (رواه الترمذي). فالحيوان -حسب منطوق الحديث الشريف- لا ينبغي أن يباد أو يقتل أو يعتدى عليه وإن كان يؤذي الإنسان أحيانًا. والرسول الكريم ﷺ يشير هنا إلى الحقيقة القرآنية التي سجلها القرآن في قوله تعالى السالف الذكر: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾(الأنعام:٣٨).

الطريق السوي حق من حقوق الحيوان

ومن منا لم يسمع بقولة الفاروق عمر ﷺ وهو يشرع فيها لحقوق الحيوان حتى جعل الطريق المعبد السوي حقًّا واجبًا من حقوقه حين قال: لو أن بغلة عثرت بشط العراق لخشيت أن يسألني الله عنها لِمَ لَمْ تصلح لها الطريق يا عمر.

إنه لسبق حضاري رفيع أن نجد من ينادي بهذا الحق للحيوان في هذه الأمة منذ خمسة عشر قرنًا، أما حق الأكل والشراب والرعاية فمكفول بكل تأكيد.

وإن تعجب، فعجب كله أن هذا النداء من الفاروق ﷺ، صدح به عاليًا في وقت كان الإنسان يُستعبد وتداس كرامته عند الأمم الأخرى كالفرس والروم وغيرهم... ولا يتمتع بأدنى حقوقه التي تليق بكرامته كمخلوق كرّمه الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠). بل إن رسول الله ﷺ ساعة القتال كان يستوصي أصحابه بالناس والحيوان والنبات خيرًا، يقول ﷺ: "اغزوا باسم الله ولا تقتلوا شيخًا هرمًا، ولا عابدًا في صومعته، ولا صبيًّا ولا امرأة، ولا تهدموا جدارًا، ولا

تغوروا بئرًا، ولا تخربوا عامرًا، ولا تقطعوا شجرة يستظل بها ابن السبيل، ولا تذبحوا بهيمة لغير مأكلة" (رواه أبو داود).

بهذه القيم والأخلاق الرحيمة التي سادت عالم الإنسان والحيوان على حد سواء، فتح المسلمون قلوب العباد قبل حدودهم، فدانت لهم الدنيا طواعية، حتى قال المفكر الفرنسي "غوسفان لوبون" في "حضارة العرب" بعد قراءة متأنية دقيقة لتاريخ الإسلام: "ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل من العرب المسلمين". ولندع -اللحظة- شواهد من هذا التاريخ الإسلامي تنطق بنفسها وتشهد على سمو أخلاقنا مع الحيوان.

رحمة النبي ﷺ بالحيوان

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فرأينا حمرة (طير يشبه العصفور) معها فرخان لها، فأخذناهما فجاءت الحمرة تعرش (ترفرف بجناحيها)، فلما جاء رسول الله ﷺ قال: "من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها" (رواه أبو داود).

لقد أحس رسول الله ﷺ بما أحست به تلك الحمرة من حرقة ولوعة، فدعا إلى الرفق بها بإرجاع فرخيها إليها حتى تسكن ويهدأ روعها، إنها من أمة الطيور لها حقها من الرفق والرحمة كحق الإنسان. وإن الرحمة لخلق عظيم يدخل صاحبه الجنة كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ حين قال لصحابته ﷺ يومًا وهو يحثهم على الرحمة بالحيوان: "بينما رجل يمشي بطريق إذ اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل، لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له فغفر له"، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجرًا؟ فقال ﷺ: "في كل ذات كبد رطبة أجر" (رواه البخاري).

قد يحتقر الواحد منا هذا الصنيع ولا يوليه كبير اهتمام في زحام الحياة، لكن الله سبحانه قدره وخلد ذكر ذلك الرجل فرحًا بما صنع. وكيف لا يلتفت سبحانه لهذه الرحمة من بشر وهو سبحانه الرحيم الرحمن القائل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأعراف:١٥٦)، بل إنه وصف نبيه المصطفى الكريم بكونه رحمة للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧). لذا وجدناه ﷺ في كل مرة يذكّر أصحابه بخلق الرحمة: "الراحمون يرحمهم الرحمن" (رواه الإمام أحمد).

وفي حديث آخر شديد الصلة بالرحمة والرأفة يقول النبي ﷺ: "من أُعطي الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة" (رواه الإمام أحمد).

هكذا نجد خلق الرحمة بالحيوان عنوان حضارتنا الإسلامية التي كان لها قدم السبق في ذلك، بل إنك لو اتبعت تشريعنا في هذا المجال لوقفت على تراث زاخر عظيم ينطق رفقًا ورحمة، فها هو ذا نبي الله سليمان عليه السلام تستوقفه نملة بواد فيتبسم إليها ضاحكًا، ويجلس إليها تحاوره ويحاورها بوحي من الله ﷻ، لأنها -وأمتها- خلق من خلق الله، بل أنه سبحانه سمى -كما سبقت الإشارة- سورة باسمها ليخلد ذكرى هذه النملة وأمتها، ويجعل كلامها متعبدًا به إلى يوم القيامة.

القسوة على الحيوان موجبة لعذاب الله

وإذا كانت الرحمة بالحيوان خلقًا يوجب المغفرة -كما سبق- فإن القسوة عليه في المقابل تدخل النار. فقد أخبر رسول الله ﷺ قائلاً: "دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض" (رواه البخاري).

فإذا كانت البشرية -قديمًا وحديثًا- أذاقت وما تزال تذيق الناس ألوان التعذيب والتقتيل والمهانة، فإن الإسلام قد كرم هذا الإنسان أحسن تكريم، بل إنه لم يقف عند هذا، بل نجده قد حرم تعذيب الحيوان وجعل ذلك موجبًا من موجبات عذاب الله تعالى له. فهذا رسول الله ﷺ حين رأى قرية نمل قد أحرقها بعض الصحابة قال مستنكرًا: "من أحرق هذه؟" قلنا: نحن، قال: "إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار" (رواه الطبري والحاكم). بل إنك لتعجب حين تعلم أن إضجاع الحيوان للذبح قبل أن يعد المرء شفرته، قسوة في دين الله لا تجوز. فقد قام رجل بين يدي رسول الله ﷺ وأضجع شاته للذبح وشرع يحد شفرته، فقال له النبي ﷺ: "أتريد أن تميتها موتات؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها؟" (رواه الطبري والحاكم).

إنها لمشاعر إنسانية تفيض نبلاً ورحمة، ما عرف التاريخ مثيلاً لها إلا في ظل شريعتنا الغراء التي تحس بكل ما يحس به أي مخلوق. ولكي تزداد يقينًا، أدعوك لنصغي جميعًا لرسول الله ﷺ وهو يقوم سلوكًا منحرفًا أساء إلى حيوان أبكم أرهقه صاحبه فوق ما يطيق؛ فقد دخل رسول الله ﷺ بستانًا لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبيَّ حن وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله ﷺ فمسح دموعه ثم قال: "من صاحب هذا الجمل؟" فقال صاحبه: أنا يا رسول الله، فقال له

النبي ﷺ: "أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملّكك الله إياها، فإنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدئبه" (رواه الإمام أحمد).

فكما أن تحميل الحيوان فوق طاقته منكر قد حاربه الإسلام واستنكره، نجده كذلك قد حرم -في إطار حقوق الحيوان- إجاعته وتعريضه للهزال والضعف والتلف. فقد مر رسول الله ﷺ ببهيمة قد لصق ظهرها ببطنها، فهاله ما رأى من خرق لحقوق هذا الحيوان، فانتفض غاضبًا وقال: "اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة" (رواه أبو داود).

ومما يستفاد من هذا الحديث أن النفقة على الحيوان واجبة على صاحبه، ومما استخلصه الفقهاء كذلك بدورهم أنه يجبر كل من امتنع عن إطعام الحيوان على بيعه أو الإنفاق عليه أو ذبحه.

ويذكر التاريخ كذلك أن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ كان يسير يومًا وهو يتفقد أحوال الرعية، فرأى رجلاً يسحب شاة برجلها ليذبحها، فهاله ما رأى من إساءة بالغة في حق شاة بكماء فقال له: ويلك، قدها إلى الموت قودًا جميلاً.

ومما قرره فقهاؤنا من حقوق للحيوان، أنه إذا لجأت هرة عمياء إلى بيت شخص، وجبت نفقتها عليه إذ لم تقدر على الانصراف.

هذا غيض من فيض مبادئ الرفق بالحيوان في تاريخنا، وتلك أمثلة على ذلك كواقع تطبيقي لرعايته وعدم الإضرار به ومنع الأذى عنه، حتى صار قانونًا بين الناس عدم تحميل الدواب فوق ما تطيق، أو تعذيبها وضربها أثناء السير، أو إيقافها في العراص وعلى ظهورها أحمالها، كما منع السماح لأصحاب الدواب بإلجامها بلجام ثقيل أو نخسها بمقرعة من حديد في أسفلها.

الرفق بالحيوان عنوان حضارتنا

فهل تجد أمة من الأمم بلغت هذا المستوى من الرفق والرحمة بالحيوان في غابر الأزمان غير أمة الإسلام؟ ولعل أرق وأصدق مثال يدلك على سمو تلك الروح لدى حضارتنا أن نجد صحابيًّا جليل القدر كأبي الدرداء الذي كان له بعير فيقول له عند موته: "يا أيها البعير لا تخاصمني إلى ربك، فإني لم أكن أحملك فوق طاقتك". وأن نجد كذلك في منظومة القتال والحرب في الإسلام، أنه يحرم حرق الزرع وقلع الشجر وعقر الدواب إلا ما كان لحاجة.

بل إن المرء ليحار وهو يسمع للإمام أبي إسحاق الشيرازي الذي كان يمشي في طريقه ومعه بعض أصحابه، فعرض له كلب فزجره صاحبه فنهاه الشيخ قائلاً له: أما علمت أن الطريق مشترك بيننا وبينه؟

وإن تستغرب، فالغرابة كلها في أن تجد صحابيًّا جليلاً وهو عدي بن حاتم الذي تعود أن يفت الخبز للنمل ويقول: إنهن جارات لنا ولهن علينا حق.

وتتويجًا لأخلاق الرحمة والرفق بالحيوان، انتشرت في بقاع العالم الإسلامي أوقاف تخص الحيوان وتهتم برعايته وتطبيبه، كما وجدت أوقاف لرعي من عجز منها وكبرت سنة فسميت "مروجًا خضراء". وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على سبق هذه الأمة إلى الرفق بالحيوان قبل أن تدعو أي أمة لذلك.

ولمن أراد أن يزداد يقينًا، فليصغ إلى رسول الله ﷺ وهو يعلن جهارًا نهارًا إلى الإنسانية جمعاء، عن حق من حقوق الحيوان حين قال: "لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي" (رواه الإمام أحمد). فالجلوس طويلاً على ظهر البعير وهو واقف، حرام في دين الله تعالى، لأنه اعتداء على بهيمة تحس لكنها لا تنطق.

كذلك يحرم التلهي بالبهيمة والطير في الصيد عبثًا، مصداقًا لقول النبي ﷺ: "من قتل عصفورًا عبثًا عج إلى الله يوم القيامة يقول: يا رب إن فلانًا قتلني عبثًا ولم يقتلني منفعة" (رواه النسائي).

إنه دين كله رحمة ورأفة شملت الإنسان والحيوان والجماد وكل شيء. بل إننا نجد مصطلح الرحمة يغطي القرآن الكريم كله باشتقاقاته المتنوعة، إذ لا تكاد صفحة من القرآن الكريم تخلو منه، إن لم يكن لفظًا فدلالة. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن المنظومة الأخلاقية لهذا الدين تقوم على مبدإ الرحمة. يقول الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأعراف:١٥٦)، ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾(الأنعام:١٢)، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(الإسراء:٨٢)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧)... وغيرها من الآيات كثير. ■

(*) كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي / المغرب.

د. محمد سالم سعد الله*

مفاهيم المشروع النهضوي الإسلامي المعاصر

إن التوجه الفكري القاضي بوصف النتاجات الماضية بـ"السلبية" وإطلاق "الإيجابية" على النتاجات المعاصرة، هو توجه يحتاج إلى إعادة الفحص ثم النقد والتقييم، لاسيما وأن الفكر المعرفي والحضاري لا يتجزأ، وهو لا ينتمي لوطن معين ولا تحدّه حدود مرسومة.

تعالج ثنائيات "الأصالة والمعاصرة"، "التقليد والإبداع"، "التراث والحداثة" إشكاليات معرفية عدة، ومن خلالها تنوعت التوجهات الفكرية، وأصبح الحديث عن "الماضي والحاضر" معيارًا فاصلاً لتصنيف المفكرين بين مقلد وحداثوي! والحقيقة تشير إلى غير ذلك، إذ لا يُسلّم الفكر الحاذق مطلقًا بالنتاجات -سواء أكانت تراثية أو حداثية- دون فحصها ثم تحديد مواطن الخطأ والزلل فيها ويؤشر على بؤر الخلل، فضلاً عن تحديد مواطن الصحة وبيان الإبداع وسماته فيها.

وتكمن الإشكالية الكبرى في بيان ماهية "النص التراثي" وتحديد معالمه. وفي هذا السياق، جنح بعض المفكرين لعدّ القرآن الكريم ونصوص المصطفى ﷺ جزءًا من التراث الإسلامي المتنوع بنصوصه الفقهية والأدبية والفنية والسياسية وغيرها، وأطلقوا الأحكام بشكل عام على هذه النصوص جميعها. ويقتضي التحليل العلمي وضع الفروق الدقيقة بين هذه النصوص لأنها ليست واحدة، إذ تنقسم إلى قسمين:

الأول: النص المقدس (القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ).

الثاني: النص المدنس (النتاجات البشرية في صُعُدٍ شتى).

ونقصد بـ"النص المقدس"؛ النص الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأحاديث المصطفى ﷺ المتفق على صحتها. ولا نقصد بـ"النص المدنس" الإيحاء بسلبيتها أو عدم نجاعتها، إنما يتجه القصد إلى بيان أنها نتاج إنساني قابل للنقض والنقد والتحليل، وخاضع للتعليل وتعدد الآراء وترجيح ما يقترب من الصواب ونحو ذلك.

ونشير إلى مسألة مهمة، وهي أن النص المقدس لا يُعد تراثًا البتة، إنما هو نص اكتسب أهمية وخصوصية صالحة لكلّ زمان ومكان وليس مُنجزًا يُورّث، هو نص مُنح صفة

الخلـود إلـى أن يرث الله تعالى الأرضَ ومـن عليها، وما عدا ذلـك فهو تراث معـرّض للدرس النقدي. فالتـراث منجزات زمنيـة تاريخيـة، صنعتهـا أجيـال متعاقبة في ظـروف معينة لا تؤخـذ علـى سـبيل الإلـزام واللـزوم، إنما تؤخذ على سـبيل النصح والإرشـاد، وعلى سبيل الفائدة والانتفاع، وتدخل في البناء المعرفي لهذه الأمة.

وعلينـا الانتبـاه إلـى أن لكل عصـر ميزاته في إشـكالياته وفـي حلوله أيضًا، ولا يصح علميًّا وعمليًّا اسـتدعاء الحلول الماضية الجاهزة لمعالجة المسـتجدات الحاضرة دون إعمال فكر وتوجيه إصلاح، إذ أحيطت الإشكاليات المعاصرة بهالة مـن التنوع والتعقيـد، التي لا يصلح معها اسـتعارة جاهزيات الآخريـن، مع وجـود إمكانية الانتفاع من تلـك الحلول على سبيل الاستئناس والمعرفة بالشيء.

وانطلاقًـا من سـنة الكون فـي التطور والتغيـر، فإن العقل الإنسـاني منظومـة فكرية متكاملـة تتعرض للتغييـر وللتطوير المسـتمرين، وهـي متجـددة بتقـادم الزمـان وتنـوع المكان، وتكتسب النضج في ترتيب الأولويات، والابتكار المتواصل، ورسـم الممارسـات المناسـبة في إطار ما يُعرض وما يُستجد من قضايا.

إن ثنائيـات؛ "الأصالـة والمعاصرة"، و"التقليـد والإبداع"، و"التـراث والحداثة"، مرتبطة بحشـد منوع مـن ثنائيات أخرى مثـل؛ التأصيل والتغريب، والتميـز والتحيز، والإبداع والاتباع، والانفتـاح والانغـلاق، والإنتاج والاسـتهلاك، والنص المبدع والنـص المجتـر، التطابـق والتناقـض، العقلانيـة والاتباعيـة، الافتعال والاعتدال، التشكيل والتفكيك، الثوابت والمتغيرات، الخطاب التشـددي والخطـاب التجددي... إلـخ. وهي تعمل بشكل منهجي في بيان مسارات الممارسة والتطبيق، وفي تحديد المناطق المعرفية في التضايف والاتصال، والتجاوز والانفصال.

يتجـه التضايـف إلـى إمكانيات الربـط بين تفعيـل النص التراثـي وتشـكيل النص الحداثي، انطلاقًا مـن نقاط التواصل بينهما، والمحددة بفكرة أن المنتجَ الإنساني هو منتجٌ متسلسلٌ متوالٍ يخضع لمسـيرة تاريخية لا تنقطع... أما التجاوز فيتجه إلـى قطـع العلاقات والإرسـاليات كافـة بين المنتـج التراثي والحداثي بدعوة اختلاف التوجهين وعطب آليات الاسـتقبال لتنـوع البعديـن وتباينهمـا كليًّـا! وهـذا مدعاة للنقـد والتقييم والنقض عندنا، انطلاقًا من الوسـطية الإسـلامية التي ننتهجها في تناول القضايا الفكرية ومناقشتها.

وعلينا في مناقشـة مفاهيم المشـروع النهضوي الإسلامي المعاصـر، ألّا نغفل التوجه نحو الكليـات في الفهم المعرفي الدقيق، الداعي إلى ممارسة التحليل والنقد، وبيان المكاسب وتنميتهـا وتحديد المزالـق وتجاوزها، فضلاً عن عدم التوجه نحـو الجزئيـات في الحكـم المعرفـي القاضـي بالتقوقع في المعاصرة وقطع أواصـر مرجعيات النصوص الحضارية التي رسمت لها شموخها، ومنحتها مزية ومكانة بين الأمم آنذاك.

تتجه مفاهيم المشـروع النهضوي الإسلامي المعاصر إلى بيـان أجندتها في مناقشـة أسـباب التقدم الحضـاري الماضي والتراجع المعاصر، وتضع في برنامجها أولوية النظر في قضية الميزان الزمني للمعطى العلمي، الذي سيمنحها أطرًا مفتوحة للعمـل والتحليل بعيـدًا عن عقدتي "تضخم الأنـا، والدونية" التي اصطبغت بها معظم نصوص المفكرين المعاصرين.

وتتناول قضية الميزان الزمني للمعطى العلمي مسائل عدة، تبدأ مع خصوصية النتاجات العلمية لعقلية تنتمي لزمنها، ولا تنتهـي عند عمومية الفكر العابر للحدود والمتجاوز للذوات. إنها قضية تملك حساسـية بالغة في الطرح والتناول، وتتسـم بمعطيات تشخص الداء وتمنح الدواء.

وإذا مـا كُتـب لهـذه المفاهيم أن تشـتغل في هـذا الإطار الفكـري، فإننـا سـنحصد إمكانيات معرفية تسـهم فـي بلورة التشـكيل الحضاري في المسـتقبل، وتعين فـي إعادة صياغته بمـا يخـدم التوجهـات العقلانيـة المعاصرة والاسـتقبالية بما ينسـجم مـع رسـالة الوحـي، وسـيظهر أثـر ذلك في مسـيرة النهضة الإسـلامية الوسـطية المنشودة بشـكل عياني تطبيقي، بعـد أن مورسـت بحقهـا فـي زمن، خـلا تنظيرات لمشـاريع تبنت شعار النهضة ومارست إجراءات التقليد والاتباع، فظهر جليًّا التناقض بين الفعل والممارسـة والتطبيق، واتجهت إلى أرشيف الإنسانية بعد أن عفا عنها الزمن والفكر.

ولا يتسـع البحـث هنا لسـرد تلـك التجارب فهـي ممتدة وكثيـرة شـملت معظم أصقـاع البلاد الإسـلامية مـن العراق إلـى بلاد الشـام إلـى بلاد المغـرب العربـي، لكنها وبشـكل عـام حملـت بـذور الإصـلاح ونيـة التغييـر، وأرادت أن تسـهم فـي إحياء نـص وبناء فعـل، لكن المشـكلة كمُنت في تغافـل أو تناسـي مـا أشـرنا إليه في مراعـاة "الميـزان الزمني للمعطـى العلمـي"، فضـلاً عن مشـكلة النظـر بعقـول الآباء

والأجـداد. فهُمْ وإن أسـهموا فـي البناء المعرفـي الحضاري الإسـلامي وقدموا ثمارهم العلمية التي تلـذذ بها وانتفع منها الدراسـون عبر عصور خلت، إلا أنها أصبحت غير منسـجمة ومتطلبات العصر وتنوعاته وتشـعباته. وأؤكد أن حديثي هنا، منصـب بشـكل أسـاس علـى النتاجـات الإنسـانية الخاضعة للتغييـر، وعلـى الفكـر المعـرض دومًـا للتنميـة والتطويـر.

لـذا بـات لزامًا على أولي الفكر والاجتهاد، أن ينظروا من خلال عنديا‌تهم، وأن يسـهموا في البناء الحضاري الإسلامي المعاصر وفي مشـروع نهضتـه، انطلاقًا من احتياجات العصر مع الاسـتئناس والانتفـاع من معطيات الآبـاء والأجداد على سـبيل التحليل والنقد وبيان المكاسب والمزالق، وليس على سبيل التسليم والتقليد.

وبهـذا المنطلـق، ستكتسـب مفاهيـم النهضة الإسـلامية ميدانًـا جريئًـا فـي مناقشـة قضايـا عـدة، أخـذ منهـا الخلاف مسـاحة زمنية اسـتهلك الجهود واسـتنفر الطاقات. ومن تلك القضايـا، مزية الأحـكام التي تُطلق على المنجز التاريخي بين موضوعيتهـا وتحيزاتهـا، ومعرفة هل أنّ التـراث هو خير كلّه وأن الحداثة هي شـر كلّها، والسـؤال العكسـي صحيح أيضًا، وهل تعدّ المعاصرة شرطًا للنشاط العقلي، وأن الأصالة شرط لصدقيـة الفكـر وصلاحية العمل، ثم بيان مسـارات الائتلاف والاختـلاف بين الأقوال والأفعال للجهود التاريخية المبذولة في البناء المعرفي الحضاري الإسـلامي، لاستثمار منجزاتها، ولتجاوز عثراتها، فضلاً عن دراسة ظاهرة "التوافق في الرؤية" التي اتسـمت بهـا نتاجات الحضارة الإسـلامية. وتشـير هذه الظاهرة إلى التوافق على تحديد الهدف المنشـود من الإبداع العلمـي في شـتى مجالاتـه، والمحدد بوضع لبنـة معرفية في البنـاء الكلي للحضارة الإسـلامية. بمعنـى أن ظواهر الإبداع كانت جمعية ولم تكن فئوية أو شخصية.

وعلينـا معرفـة أن ثنائيـات مفاهيـم المشـروع النهضـوي الإسـلامي لا تشتغل لوحدها، إذ هي مصفوفة في نظام ثقافي حياتـي متكامل يشـمل التوجه السياسـي، والنتـاج الجماعي الشعبي، والمنجز الاقتصادي. فالنهضة لن تتجسد واقعًا عيانيًّا دون توحـدٍ -أو على الأقل تقاربٍ- بين الخطابين السياسـي والثقافـي، لأن انفصالهما يؤدي إلـى انفصام الطرح التنظيري لمشروع النهضة عن الممارسة التطبيقية على أرض الواقع بسبب الحاجز السياسي، وما أشد وقعه وتأثيره في البلاد الإسلامية.

كما ستضطلع هذه المصفوفة بمهمة إعادة ترتيب الأفكار والمسـارات المعرفيـة، والتبشـير بثقافـة الإنتـاج ونبـذ ثقافة الاسـتهلاك، وبيـان أن العصـور العلمية ليسـت ملـكًا لأحد، وبهذا يمكن غربلتها بما يتفق مع توجهات مشروع النهضة.

وجديـر ذكـره أن التطلع لبناء مشـروع نهضوي إسـلامي معاصر من هذه الجهة أو تلك، لا يعني مطلقًا اكتسابه الحقيقة كلها وامتلاكه أسس الصحة في الفعل والعمل، إنما يشير إلى اجتهـاد فكـري قد يصيب في إجراءاتـه وقد يخطئ وهذه هي مزية العمل الإنسـاني، والادعاء باكتسـاب الحقيقة كلّها يوقع في شَرَكِ النقص والانتقاد والشطط.

وعلينا الانتباه كذلك إلى أنّ الاشتغال في مفاهيم المشروع النهضـوي الإسـلامي المعاصـر، لا يعنـي مطلقًـا الانفتـاح المفتعل على العالم على حساب ما عُلِم من الدين بالضرورة. بمعنى أن يكون الانفتاح سـببًا للتنازل عـن الوصايا والتعاليم الدينية كما حصل عند بعض الدعاة الجدد، الذين رفعوا شعار التنمية والنهضة الإسلامية المعاصرة، لكنهم وفي الوقت نفسه تجـاوزوا حـدودًا ما كان ينبغي لهم تخطيهـا، ودقّوا بخيارهم هذا أسفين الخلاف في مشروعية تبني العمل في هذا الإطار.

فضلاً عن أنّ الاشـتغال في هذه المفاهيم، يجب أن يتسم بالخصوصيـة والوسـطية النابعة من الفهـم القرآني والقاضي بكـون الرؤيـة الإسـلامية وأسسـها العقديـة هـي المرجع في معرفـة الصـواب وتمييزه، وتأشـير الخطأ والتنبيـه من الوقوع فيه. وعندما يتحقق الاشتغال الفكري من خلال هذا المفهوم، عندئذ تكتسب الرؤية صفة المرجع والشاهد والقدوة الحسنة، انطلاقًا مـن قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَـطًا لِتَكُونُـوا شُـهَدَاءَ عَلَى النَّـاسِ وَيَكُونَ الرَّسُـولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣).

وجديـر ذكـره أن مفاهيم المشـروع النهضوي الإسـلامي تتجاذبهـا أطـراف عـدة، تبـدأ مـن إشـكالية مناقشـة المنجز التاريخي، وصولاً إلى قضية تحيزات المدونة التاريخية نفسها وليس انتهاء بمسارات العقلانية المعاصرة التي تفرض أنماطها الفكريـة بوصفها ضرورات حداثية يقتضيهـا الواقع المعيش.

ويمكن الانتفاع في هذا السياق -ومن باب حديث الأمين المصطفى ﷺ: "الحِكمَةُ ضالةُ المؤمن أنّى وجدَها فهو أحقُّ الناس بها" (رواه الترمذي)- من ميراث الحضارات والشـعوب الأخرى؛ فكانت الحضارة الإسلامية في الأندلس معينًا ثرًّا، ونبعًا متدفقًا

بالمعطيات العلمية أضاءت ميادين أوربا المظلمة آنذاك.

ولنا في المنجز الإسلامي الحضاري مثال شاخص على ما ذُكر، إذ منح النص الكريم مفاتيح اشتغال للعلماء المسلمين، ورسم لهم خصوصية تتسم بالموسوعية والابتكار وعدم الركون إلى التقليد، والحث على النظر المستمر والسياحة في الأرض، ودراسة حال الأقوام السالفة، لأخذ العبر، وتحفيز العقل على التفكر والتدبر والتأمل، وتقليب الأمور على أوجهها حتى يتبين الحق. وبذلك قدّم المنجز الإسلامي للعالم كلّه أسماء أسهمت في خدمة الإنسانية جمعاء، وأوضحت جوانب علمية كثيرة كانت غائبة عنها، والقائمة في هذا السياق تطول في الجانب الديني، والطبي، والهندسي، والفلكي، والاجتماعي، والتأريخي، والنفسي، والجغرافي، واللغوي، والبلاغي... إلخ.

إن الحديث عن النهضة الإسلامية المعاصرة وبيان مفاهيمها ليس حديثا آنيًا، إنما هو حديث متجدد بتجدد الظواهر والمعطيات على الصعيدين الإسلامي والعالمي. وقد برزت جهود طيبة في هذا المجال خلال نهاية القرن التاسع عشر والقرن العشرين، ونادت محاولات محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وحسن البنا، وسيد قطب، ومالك بن نبي... وغيرهم، نادت الجهود المخلصة المحبة لدينها والمتجهة لرضا ربها، وحفزت الهمم المبدعة في سبيل فهم جديد للنص الديني ينطلق من قاعدة "ثبات النص وحركية المعنى"، ويتجه نحو احترام سيادة العقل ومعطياته، وخدمة الإنسانية، وتعظيمًا للدور الإسلامي الحضاري الذي بات العالم أجمع بحاجة ماسة لحلوله التي تنتظر مَنْ يُحسِن تقديمها ويبلور نتائجها.

لكن مشروع النهضة الإسلامية محفوف بمطبات عدة، نظرًا لاتساع تنوع الفكر الإسلامي وتشعبه بين معتنقيه. وباتت هذه المطبات عوائق منعت المسار النهضوي، وأخّرت بدورها ممكنات القيام بهذا العمل بشكل جماعي لا فئوي. ويمكن الحديث عن أهم المطبات التي تعتري مسيرة مشروع النهضة الإسلامية من خلال الآتي:

• من أخطر إشكاليات مشروع النهضة الإسلامية هو بعد منظري المشروع أو المشتغلين عليه، عن العلماء العاملين أصحابِ الفتوى والاجتهاد. ويؤدي هذا البعد إلى تباين في المواقف وضعف في التأثير.

• مشروع النهضة الإسلامية من وجهة نظر طائفية. ويقود هذا الأمر إلى نقص في البناء الفكري، وعوز في بيان المقدمات، وفساد في استخلاص النتائج، ولنا في الطروحات الطائفية مثال أكبر شاهد.

• تعد قضية استيراد الحلول الجاهزة، مثلبًا يعوق مشروع النهضة الإسلامية ويؤخر قيامها، لأنه يعتمد على جاهزيات الفكر عند الآخر، وهي غير مناسبة بالضرورة للفكر الإسلامي لتباين خصوصية الطرح في كلا التوجهين.

• لا يمكن تقديم الدعوة إلى ولادة هذا المشروع أو إحيائه جملة واحدة، بل لابد من الاحتكام إلى فقه الأولويات، وبيان مسارات الحاجة المعرفية، وتقديم الأهم على المهم، والعمل وفق تدرج علمي مدروس.

• تباين الأساليب الداعية إلى هذا المشروع بين المسلمين في الشرق وفي الغرب، ويعود سبب ذلك إلى تباين المشكلات واختلافها.

• تباين الطرح النهضوي لدى النخب الإسلامية المعاصرة، ويرجع سبب ذلك إلى التبني الفكري القصدي والموجّه بمسار حزبي ضيق، أو مذهبي محدد، أو طائفي مقيت، أو ذاتي متضخم.

وفي الختام، نأمل أن نكون قد أسهمنا في بيان ما يعتري مفاهيم مشروع النهضة الإسلامية، من خلال تقديم رؤية نقدية توجيهية تقضي بضرورة إحياء الماضي واستلهام الدروس منه، وفحص منجزاته بشكل علمي ومنهجي، وعدم التقيد بها أو تقليدها، لأنها نتاجات إنسانية تخطئ وتصيب. وتؤكد هذه الرؤية احتضان الحاضر والانتفاع من طروحاته، وتحليل معطياته وفق الأسس العقدية المتمثلة بنص القرآن العظيم وبسنة النبي الكريم ﷺ، مع تحفيز العقل على الاشتغال والابتكار والإبداع. كما تتجه هذه الرؤية إلى استشراف المستقبل وصياغة مفاهيمه، انطلاقًا من الإيمان بأنّ الرسالة الإلهية صالحة لكل زمان ومكان، وأن المشروع النهضوي المنبثق منها، جدير بخدمة الإنسانية وتقديم ما يصلح لها. وإذا ازدانت الرؤية الاشتغالية في هذا المشروع بما تقدم آنفًا، وتجاوزت المطبات التي تعتري مسيرتها، فإنها ستعيد مجدها الحضاري المتواري طيلة عصور خلت. ■

(*) عميد كلية اللغات بجامعة المدينة العالمية / ماليزيا.

د. إدريس مقبول*

العقل المؤيد بالإيمان عند النورسي

أو اتصال الآيات والقيم

يعرّف الإمام النورسي العقل بأنه آلة تابعة لإرادة الإنسان بعد أن تُعَيّن له الحق من الباطل والخير من الشر، فإنها -أي الآلة- لا مدخل لها في الفعل من حيث الاختيار. فالإنسان قد يعرف الشر بعقله ويأتيه مع علمه بضرره اللاحق له أو لغيره في العاجل أو في الآجل، ويعرف الخير ويتركه مع علمه بنفعه وهو سر الابتلاء. ولهذا لم يكن امتلاك هذه الآلة وحده كافيًا ليحقق ماهية الإنسان وسعادته، ما لم يؤيد بالإيمان الذي يحمل الكائن الإنساني على الفعل الخَيّر (فعل الاستخلاف). بل إن العقل الآلة، ما لم يستعمله الإنسان في طريق الخير

المطلق أو في سبيل الله -كما يرى النورسي- "فإنه يتحول إلى عضو مشؤوم مزعج وعاجز، إذ يحمّلك آلام الماضي الحزينة وأهوال المستقبل المخيفة، فينحدر عندئذٍ إلى درك آلة ضارة مشؤومة. ألا ترى كيف يهرب الفاسق من واقع حياته وينغمس في اللهو أو السكر إنقاذًا لنفسه من إزعاجات عقله؟". وليس هذا الهروب سوى قطع للعقل، بما هو آلة إدراك للعالم عن الفعل النبيل والبناء في هذا العالم، بما هو الفعل نفسه إدراك للغاية التي من أجلها خلق الكائن الإنساني ولأجلها كُرِّم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦)، حيث لا يستقيم وجود عبادة بدون عقل، ولا عقل بدون عبادة.

مراتب الوجود ومراتب العقول

يذهب النورسي إلى أن "أهل الحكمة وأهل الدين وأصحاب العقل والنقل، متفقون ضمنيًّا على أن الموجودات لا تنحصر في عالم الشهادة هذا، وأن عالم الشهادة الظاهر الجامد الذي لا يكاد يتفق مع إقامة الأرواح وتشكلها، قد تزين بهذا العدد الهائل من ذوي الأرواح والأنسام، لذا فالوجود لا يمكن أن يكون منحصرًا فيه، بل هناك طبقات أخرى كثيرة من الوجود، بحيث يصبح عالم الشهادة بالنسبة لها ستارًا مزركشًا. وما دام عالم الغيب وعالم المعنى ملائمين للأرواح -كملائمة البحار للأسماك- فلابد أنهما يزخران بأرواح ملائمة لهما".

عوالم بعضها فوق بعض، وعقول بعضها أيضًا فوق بعض، ومنزلة العقل المادي فيها لا تعدو منزلة خفاش "جيد الإبصار في ظلمات الكون المادي وما أودع الله فيه من أسباب، حتى إذا خرج من كهفه ذاك إلى حيث تسطع شمس حقائق الغيب عمي عمى مطبقًا، وأنكر أن يكون في الوجود غير ما وقع عليه حسه الكليل".

ولما تعددت مراتب الوجود وطبقاته، حتى كان الوجود الحسي أدناها ولا يمثل شيئًا أمام عظم الوجود عامة، كانت العقول أيضًا مراتب يوافق منها كل واحد مرتبة من مراتب الوجود. فعلى قدر تحقق الإنسان بواحد من هذه العقول، كان له الاطلاع اللائق بالمرتبة المطلوبة من الوجود المتواري خلف الحس. وهذه العقول تتدرج في القوة حتى يكون أضعفها هو العقل الحسي المجرد وأقواها هو العقل الإيماني المؤيد، وبينهما مراتب من العقل الشرعي المسدد.

وإن معارف المراتب العالية من الوجود الخارجة عن الحس، يتلقفها العقل الإيماني المؤيد لمعات لا يستقيم تناولها بميزان العقل المجرد وقوانينه، بل إن اللغة نفسها تضيق فلا تتسع للتعبير عن هذه الحقائق المتوارية، و"عدم التعبير ليس عَلَمًا على عدم الوجود. فكما أن اللسان كثيرًا ما يتقاصر عن أن يترجم عن دقائق ما في تصورات العقل، كذلك قد لا يتراءى بل يتغامض عن العقل سرائر ما في الوجدان، فكيف يترجم عن كل ما فيه؟".

وإذا كان هذا في سرائر الوجدان، فكيف بسرائر الأكوان مما هو كائن أو كان خصوصًا إذا تفاعلت النفس بهذه اللمعات، يقول النورسي: "لقد مازج هذه اللمعة شيء من الأذواق والمشاعر، فأرجو عدم تقييمها بموازين علم المنطق، لأن ما تجيش به المشاعر لا يراعي كثيرًا قواعد العقل ولا يعير سمعًا إلى موازين الفكر".

إنها حقائق الوجود حين تتأبى على الوصف، وتخرج عن طوق الترسيم كما قال النفري صاحب المواقف والمخاطبات: "كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة".

ارتقاء العقل

لقد أبان النورسي -رحمه الله- على أن منهج التربية في القرآن كما يعلي من قيمة العقل بما هو حاكم وسبب في رقي الإنسان وصناعة تطلعاته في الحياة، وبما يمنحه من قدرات على الابتكار والإبداع في دنيا الابتلاءات، فإنه في مسيس الحاجة لنفحة الإيمان تحفظه من المهالك وتجعله على أقوم المسالك. إذ العقل عند الإمام النورسي، في مسيس الحاجة لنفحات الرحمن والاتصال بالمطلق (الله) حتى يجد معنى حقيقيًّا لهذه الحياة، ويبقى على خط البناء والعمران لا الهدم والخسران.

والبقاء على خط الاستقامة والبناء، يستلزم صراعًا مستمرًّا مع خصوم الإنسان وأعدائه في الداخل والخارج على محور الابتلاء... ولهذا كان الإنسان دائم المراوحة بين الذكر والغفلة، "وعندما تهيج أحاسيسُ الإنسان، لا ترضخ لموازين العقل، بل الهوى هو الذي يتحكم، فيرجح عندئذ لذةً حاضرةً ضئيلة جدًّا على ثواب عظيم في العقبى، ويتجنب ضيقًا جزئيًّا حاضرًا أكثر من تجنبه عذابًا أليمًا مؤجلاً. ولما كانت الدوافع النفسانية لا ترى المستقبل بل قد تنكره -وإن كان هناك حقًّا لها من النفس وعونًا- فإن القلب والعقل اللذين هما محل الإيمان، يسكتان فيُغلبان على أمرهما. فلا يكون عندئذ

ارتكاب الكبائر ناتجًا من عدم الإيمان، بل من غلبة الهوى وسيطرة الوهم والحسّ المادي، وانهزام العقل والقلب وغَلَبة كل أولئك عليهم".

والإنسان إذا تدارك غفلته، فتاب عقله عن عنجهيته وتمرده على خالقه، وسجد بين يديه سبحانه معترفًا بالتقصير والضعف والتناهي، تداركته يد العناية، فيتحول العقل الجامد إلى عقل حي، وينقلب العقل المحبوس إلى عقل منطلق، ويرتفع الإنسان من وهدة البهيمية الراتعة بلا مسؤولية ولا رقابة أخلاقية إلى مراقي التشريف والتكريم، يقول الإمام النورسي رضي الله عنه: "وانظر إلى الإنسان كيف ترقّى من حضيض الحيوانية الذي هوى إليه بعجزه وفقره وبعقله الناقل لأحزان الماضي ومخاوف المستقبل، ترقّى إلى أوج الخلافة بتنور ذلك العقل والعجز والفقر. فانظر كيف صارت أسبابُ سقوطه -من عجز وفقر وعقل- أسبابَ صعوده بسبب تنورها بنور هذا الشخص النوراني".

وحقيقة ارتقاء العقل لا تكون إلا بأخذه بالإيمان وبالقيم الأخلاقية، وإلا استحال أمر تحكيمه منفردًا إلى ضرب من التأليه الذي يودي بالحياة الإنسانية إلى أتون الفوضى والاقتتال، يقول النورسي: "القلب الإنساني إذا انتزع منه الرأفة والرحمة والاحترام، فإن العقل والذكاء يسيطران -عندئذ- على زمام الإنسان، ويجعلان أولئك الناس كالوحوش الضارية والكلاب المسعورة".

وهكذا فإن الترتيب الفطري للإنسان يرفع القلب إلى مقام الإمارة، ويجعل العقل وزيرًا له والحواس خَدَمَة، فإذا فسدت الفطرة تَأَمَّر العقل، وتمرد على القلب ومعانيه، وهذا فساد العقل الفلسفي العبثي، فإن فسدت الفطرة الفساد التالي للفساد الأول، الملازمَ له، الناتجَ عنه، تَأَمَّرَ الهوى بشهواته، وسَخَّرَ العقل لأغراضه، وطرد معاني القلب من القيم الإيمانية العالية.

وقد استمر النورسي طوال حياته، يدافع عن العقل الأخلاقي الذي يرجح القيم الإنسانية النبيلة على القيم الإنسانية المنحطة، ويذكر في كل مناسبة أن قيمة العقل من قيمة الأخلاق التي يدافع عنها، يقول: "فلئن كانت المداهنة والتملق والتزلف وفداء المصلحة العامة في سبيل المصلحة الخاصة، تعدّ من مقتضى العقل... فاشهدوا أني أقدم براءتي من هذا العقل، مفتخرًا بالجنون الذي هو أشبه ما يكون بمرتبة من مراتب البراءة".

العقل مفتاح الكنوز الخالدة

حتى يكون العقل مفتاحًا للكنوز عند الإمام النورسي -رحمه الله- ينبغي أن يرتبط بالقرآن الكريم، وبتصوره الشمولي الذي يتحدث أول الأمر عن العقل بما هو فعل القلب، وليس مفصولاً عنه. بل الممارسة العقلية في أجلى صورها تكون من هذا المنطلق الرباني إشعاعات قلبية مهتدية بهداية القرآن، وهذا معنى قول النورسي: "نور العقل يشع من القلب".

فلا إشعاع للعقل حتى يكون القلب مصدره الذي يخرجه مخرجًا إيمانيًا، حيث يجمع العقل المؤمن آنئذ بين قراءتين في سهولة ويسر وانسجام ووئام؛ قراءة كتاب الله المسطور، وقراءة كتاب الله المنظور "للخروج من إسار الأمية بكل أشكالها ومعانيها... كتاب منزل متلو معجز وهو القرآن، وكتاب مخلوق مفتوح وهو هذا الخلق والكون والتجارب البشرية فيه".

والعقل المفتاح عند النورسي، عقل متجاوز باستمرار لقشور الحكم إلى لب الحكمة، فهو مفتاح رائع، "بحيث يفتح ما لا يعد من خزائن الرحمة الإلهية وكنوز الحكمة الربانية، فأينما ينظر صاحبه وكيفما يفكر، يرى الحكمة الإلهية في كل شيء وكل موجود وكل حادثة، ويشاهد الرحمة الإلهية متجلية على الوجود كله، فيرقى العقل بهذا إلى مرتبة مرشدٍ رباني يهيئ صاحبه للسعادة الخالدة".

ويشترط النورسي حتى يكون العقل مفتاح الكنوز، أن يتحلى بالتوحيد، حتى يخرج من الوحشة والخوف والضعف، ذلك أن "التوحيد هو نفسه أوضح برهان وأسطع دليل على الكمال والجمال الإلهي، لأنه إذا عُرف أن صانع الكون واحد أحد، فسيُعرف جميع أنواع الكمال والجمال المشاهَدة في الوجود، بأنها ظلال وتجليات وعلامات لأنواع الكمال المقدس وأنماط الجمال المنزّه لذلك الصانع الواحد الأحد، لذلك الكمال المقدس والجمال المنزه. بينما إذا لم يُعرف الصانعُ الواحد، فستحال تلك الكمالات وأنواع الجمال إلى الأسباب التي لا شعور لها وإلى مخلوقات عاجزة، وعندها يحار العقل البشري أمام خزائن الكمال والجمال السرمديين، لأنه فَقَدَ مفتاح تلك الكنوز الخالدة".

منطق السببية والعقل الملكي

يتحدث النورسي عن عَبَدة الأسباب، والذين يحيلون الخلق

والإيجاد إلى الوسائط، ويسندون إليها التأثير، ويريدون بلوغ حقيقة الحقائق، ومعرفة الله ﷻ عن طريق العقل والفكر وحده، كالحكماء المشائيين.

كما اجتهد الإمام النورسي -رحمه الله- في الرد على حجج فلاسفة الحتمية السببية بمنطق يشي بمعرفة واسعة بمذاهبهم، وفي الوقت ذاته باطلاع واسع على أدبيات المتكلمين والفلاسفة المسلمين. كما يظهر للقارئ أن مناقشته للحتميين، شبيهة بمناقشة الإمام الغزالي في تهافت الفلاسفة في إبطال قولهم في استحالة خرق العادات، وهو مبحث خصصه لنفي رجوع الاقتران لمنطق السببية، بل لما سبق من تقدير الله سبحانه، يخلقها على التساوق لا لكونه ضروريًّا في نفسه غير قابل للفرق. يقول الإمام النورسي: "أيّ هذرٍ هذا، وأيّ وَهْم! أليس الذي يتفوه به بعيدًا كل البعد عن سلامة العقل؟ فالذين يحيلون أمر الخلق والإيجاد في هذا الكون البديع، إلى الأسباب وإلى الطبيعة يهوون في جهل مركب سحيق كهذا، وذلك لأن مظاهر الإبداع واضحة على الأسباب والطبيعة نفسها، فهي مخلوقة كسائر المخلوقات. فالذي خلقها -على هذه الصورة البديعة- هو الذي يخلق آثارها ونتائجها أيضًا ويظهرها معًا".

الإنسان إذا تدارك غفلته، فتاب عقله عن عنجهيته وتمرده على خالقه، وسجد بين يديه سبحانه معترفًا بالتقصير والضعف والتناهي، تداركته يد العناية، فيتحول العقل الجامد إلى عقل حي، وينقلب العقل المحبوس إلى عقل منطلق، ويرتفع الإنسان من وهدة البهيمية الراتعة إلى مراقي التشريف والتكريم.

ويوضح النورسي أن الأسباب إنما وُضعَت "لتبقى عزةُ القدرة مصونةً من جهة نظر العقل الظاهري؛ إذ إن لكل شيء جهتين -كوجهي المرآة- إحداهما جهة "المُلك" الشبيهة بالوجه المطلي الملوّن للمرآة، الذي يكون موضع الألوان والحالات المختلفة، والأخرى جهة "الملكوت" الشبيهة بالوجه الصقيل للمرآة. ففي الوجه الظاهر -أي جهة المُلك- هناك حالات منافية ظاهرًا لعزة القدرة الصمدانية وكمالِها، فوُضعَت الأسبابُ كي تكون مرجعًا لتلك الحالات ووسائلَ لها. أما جهةُ الملكوت والحقيقة، فكلُّ شيء فيها شفافٌ وجميلٌ وملائمٌ لمباشرةِ يدِ القدرة لها بذاتها وليس منافيًا لعزّتها. لذا فالأسباب ظاهرية بحتة، وليس لها التأثير الحقيقي في الملكوتية أو في حقيقة الأمر".

وحينما يقارن النورسي بين منطق القرآن ومنطق المتكلمين، يفصح عن صورة تقدم الوحي وترفعه فلا توازيه في منزلته الإقناعية منزلة المتكلمين مهما تفننوا وبرعوا، فيقول: "فمن هذا السر يتبين أن علماء الكلام، وإن تتلمذوا على القرآن الكريم وألّفوا ألوف الكتب -بعضها عشرات المجلدات- إلا أنهم لترجيحهم العقل على النقل كالمعتزلة، عجزوا عن أن يوضحوا ما تفيده عشرُ آيات من القرآن الكريم وتثبته إثباتًا قاطعًا بما يورث القناعة والاطمئنان، ذلك لأنهم يحفرون عيونًا في سفوح جبال بعيدة ليأتوا منها بالماء إلى أقصى العالم بوساطة أنابيب، أي بسلسلة الأسباب، ثم يقطعون تلك السلسلة هناك، فيثبتون وجود واجب الوجود والمعرفة الإلهية التي هي كالماء الباعث على الحياة! أما الآيات الكريمة، فكل واحدة منها كعصا موسى تستطيع أن تفجّر الماء أينما ضربت، وتفتح من كل شيء نافذةً تدل على الصانع".

إن النورسي من خلال هذا الكلام التمثيلي الرائع، يوضح كيف يمضي تفسير القرآن للسببية من غير أن تصير حاجزًا عن إدراك العقل للوجود في كليته، للوجود المتمكن بقدرة الله التي تفعل فيه وبه ما تشاء. كما يبين في الوقت ذاته كيف أن السببية الجامدة تشل حركية العقل المادي وتأسره، فهي تحد من طاقته الإبداعية، فلا يتصور شيئًا خارجًا عن قانون وَضَعَهُ وسَكَنَ في قفصه إلى الأبد.

العقل والجمع بين الآيات والقيم

العقل المؤيد بالوحي والإيمان عقل يصل بين الآيات والقيم. ومعلوم أن أحد أسباب التردي والانهيار في الواقع الكوني اليوم، هو سيطرة فلسفات ومناهج معرفية تفصل بين الآيات والقيم. والحقيقة أنه لا نزاع في أن الكائن الإنساني يميل بفطرته التي خلقه الله تعالى عليها، إلى أن يجد في الأحداث التي تجري من حوله دلالات تجاوز واقعها. وهو يرى في حصولها إشارات تتعدى الظواهر، وتحمل إليه هذه الدلالات الدقيقة والإشارات الخفية، معاني بعيدة أو قيمًا عليا يشعر

بالحاجة إلى الاهتداء بها وإتيان أفعاله على وفقها.

والحال أنه ليس في الأطوار التي تقلبت فيها الحضارة الإنسانية كما يذهب الدكتور طه عبد الرحمن "طور خالف هذا الميل الفطري لدى الإنسان مخالفة الواقع الكوني له، فهو يقر بوجود القيم، لكنه لا يقر بوجود الآيات، ولا يخفى أن الفصل بين الآية والقيمة إجراء تجريدي صناعي، بل تصنعي، ذلك أن الآيات لا تعدو كونها الظواهر عينها وقد تلبست بها القيم، والظواهر إنما هي الآيات وقد انتزعت منها هذه القيم، فهذا الانتزاع يؤدي إلى تجريد القيم من المواد التي تتجسد فيها أو من الموضوعات التي تحملها، ثم وضعها في عالم لا وجود له إلا في الأذهان، قد يزعم بعضهم أنه عالم المثال، أي عالم لا يأوي إلا الصور المجردة".

لقد كان الإمام النورسي حريصًا على تعليم تلامذته ومحبيه أن كل علم من العلوم التي يقرءونها يبحث عن الله دومًا، ويعرّف بالخالق الكريم بلغته الخاصة.

من موجبات اشتغال العقل الإيماني المؤيد، أن لا تنفك معرفة موضوع أيّ علم عن معرفة الله تعالى فيه، فكل معرفة عقلية كاملة، تشكل مفتاحًا من مفاتيح الاهتداء إلى طريق الله بقدر ما هي علمك بالموضوع الذي تختص ببحثه وبالكشف عن قوانينه. فالموضوعات أو الموجودات التي تنظر فيها العلوم، هي -على التحقيق- مجلى قدرة الله ومظهر صنعه، وكل من سرح فيها فكره وكان ذا عقل كامل، وجب أن يدركه فيها وأن يزداد اقترابًا منه.

في استعارة رائعة يقول النورسي: "إن القرآن الحكيم بمثابة عقل الأرض وفكرها الثاقب، فلو خرج القرآن -والعياذ بالله- من هذه الأرض لجُنّت الأرض". وإن جنون الأرض، هو جملة الأمراض والأزمات التي تنبأ بها النورسي عندما تنفصل الآيات عن القيم، فتتحكم في دنيا الناس القيم المادية التي تطحنهم في رحاها، فلا يعيش إلا القوي، ولا يتأمر إلا المحتال الذكي، ولا يكون مثلاً أعلى إلا الفارغ الغوي.

إن الغاية من إعمال العقل عند الإمام النورسي، هي تحقيق التفكر والاعتبار، ومقتضى الاعتبار -كما يقول طه عبد الرحمن- هو العبور من أحكام النظر إلى أسرار العبر، فيكون الإنسان المُعتبِر حقيقة هو من يرى الظواهر على أنها آيات، وينسب السيادة على الكون والوجود إلى صاحب هذه الآيات.

هذا وإن العلم بمعناه المادي، قد فشل -بالتأكيد- في أن يوفر للإنسان الراحة النفسية والسلوى والرضا، لأنه في الوقت الذي وفر فيه عالمًا للكفاءة والفعالية والقياس والتنبؤ، قدم أيضًا عالمًا فاقدًا للمعنى الخفي، ولا يهتم بالإشباع الروحي كما يؤكد "ماكس فيبر". إنه عالم بارد غير مضياف، الحقيقة فيه ليست الجمال أو الفضيلة أو ما هو نافع ويخدم غايات نبيلة، إن القيمة والعاطفة والأمل والمخاوف ليست من اهتماماته.

وإذا لم تكن هذه القيم الإنسانية من انشغالات العقل المادي واهتماماته، فإن النورسي يلح بالجواب على أن الإيمان هو الذي يقيم بين القلب والعقل، وهو الحارس المعنوي الأمين الذي يراقب ميولات النفس وتطلعاتها الفاسدة حتى يبقى الإنسان عبدًا لله الواحد الأحد، متخلقًا بالأخلاق المحمدية، في زمن بات الخطر الكبير الذي يهدد حاضر ومستقبل الغرب، هو الصعود المأساوي لنوع جديد من الأزمات؛ أزمة الإنسان. ■

(*) أكاديمي ومفكر مغربي.

المراجع

(١) كليات رسائل النور (المكتوبات، اللمعات، الكلمات، إشارات الإعجاز، الشعاعات، سيرة ذاتية، الخطبة الشامية)، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(٢) إمامة الأمة، لياسين عبد السلام، ط١، ٢٠٠٩، دار لبنان للطباعة.

(٣) المواقف والمخاطبات، لـ"النفري عبد الجبار"، تحقيق آرثر أربري، تقديم وتعليق عبد القادر محمود، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، القاهرة.

(٤) الجمع بين القراءتين، قراءة الوحي وقراءة الكون، لـ"العلواني طه جابر"، ط١، ٢٠٠٦، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة.

(٥) تهافت الفلاسفة، للغزالي أبو حامد، تعليق محمد السعيد محمد، المكتبة التوفيقية ٢٠٠٣، مصر.

(٦) العمل الديني وتجديد العقل، للدكتور طه عبد الرحمن، ط٢، ١٩٩٧، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت.

(٧) الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، للدكتور طه عبد الرحمن، ط١، ٢٠٠٥، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت.

(٨) روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، للدكتور طه عبد الرحمن، ط١، ٢٠٠٦، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت.

(٩) سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، للدكتور طه عبد الرحمن، ط١، ٢٠٠٠، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت.

(١٠) John F. Haught. Science and Religion, Paulist press, New York, 1995, p15.

(١١) Philipe Saint Marc. L'Economie Barbare, Frison Roche, 1994, p15.

أ.د. عرفان يلماز*

الهدهد
الطائر الذكي

عزيزي الإنسان... لا شك أن طيورًا كثيرة من بنات جنسي حدثتكَ عن قدرة الله تعالى في خلقه، ومن ثم عن عجائب صنعه وبدائع حكمته التي تجلت في أجسامها. كان ينبغي أن أكون أوّل المتحدثين في هذا الشأن، لكوني واحدًا من الطيور التي ذكرها الله تعالى في قرآنه. نعم، تم ذكري في القرآن الكريم مع النبي سليمان عليه السلام: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۞ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۞ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۞ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۞ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ۞ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۞ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ

الْكَاذِبِينَ ۞ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾(النمل:٢٠-٢٨).

يا لها من صورة مبهرة وبيان معجز! تُرى لماذا تحدث كتاب مقدس كالقرآن الكريم عن الطيور، واختارني أنا بالأخص في الحديث مع نبي عظيم كسليمان عليه السلام؟! ما دمنا نؤمن بأن لله حكمة في كل شيء، إذن يجب أن نفكر ونتدبر في هذه الآيات ونستخرج منها الجوانب التي تتعلق بيومنا الحاضر أو مستقبلنا الآتي. إذا لاحظْتم، استخدمتُ تعبير "أن نفكر"، وذلك لأن الأحكام القطعية، يُحتمل أن تكون عائقًا في الوصول إلى المعلومات الأكثر صحة ودقة، كما يمكن أن تكون هذه الأحكام سببًا في انْخداعنا بعلمنا البسيط الضحل. لأنه إذا اتضح مع الأيام أن القرآن الكريم المعجز بكل كلماته، يشير إلى علوم ومكتشفات جديدة أكثر دقة وأشد التصاقًا بالواقع، أكون قد وضعتُ نفسي في موقع حرج بإطلاق أحكام قطعية، لذا يجب في هذا المقام أن أستخدم "منطق الطير" بدقة فائقة.

و"منطق الطير" مصطلح ورد في مطلع القصة التي ذكرتها الآيات السابقة: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ۞ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾(النمل:١٦-١٧).

على الرغم من أن بعض التفاسير ذكرت بأن سليمان عليه السلام كان يعرف جميع لغات الطيور، فإنه من الملفت للانتباه أن القرآن الكريم استعمل مصطلح ﴿منْطِقَ الطّيْرِ﴾ دون "لغة الطير". فالمفسر الكبير العلامة التركي "أَلْمالِلِي محمد حمدي يازِير" (١٨٧٧-١٩٤٢م)، يذكر بعدَ شرح طويل أن "المنْطِق" من "النُّطْق" وهو لغة الطير، ولكن هذه اللغة لا تنحصر بالأصوات التي تخرج من الفم فحسب، بل هي لغة تعرب عنها الأصوات والتصرفات معًا... ثم يضيف منطلقًا من هذا المفهوم فيقول: "إن سليمان عليه السلام لم يتوقف في معرفته بلغة الطير عند حدود الأصوات والتصرفات فحسب، بل تجاوزها إلى المنطق الذي يشكل أساس تلك الحواس". وهذا الفهم في حقيقة الأمر، لا ينحصر بسيدنا سليمان عليه السلام وحده، فنحن أيضًا مهيّؤون لفهمه واستيعابه، ولكن بشرط أن ندرسه بحق، ونبحث عنه بجدية لامتناهية.

منطق الطير

بمنطق الطير لدي، يمكن أن أتناول المعاني التي استخرجتُها من العبارات والتحاليل أعلاه من عدة زوايا:

أولاً، تم التركيز على أن "الطيران" أمر يحتاج إلى تعمق في العلم ودقة في الدراسة والبحث، وأن سيدنا سليمان عليه السلام وُهب علم المبادئ الميكانيكي الذي يمكّننا من الطيران، وعرف كذلك قدرة الرياح على الرفع في الهواء، والخصائص الفسيولوجية والتشريحية التي تلعب دورًا أساسيًّا في الطيران والتحلق في السماء.

ثانيًا، أعتقد أن في: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، إشارة إلى أهمية الثروة البالغة في الدول؛ فوجود الطير مع الإنس في جيش سليمان عليه السلام، لفت انتباهٍ إلى القوات الجوية أي الطائرات. وجميعكم يعرف مدى أهمية المراقبة من الجو والتحرك السريع في التجسس والاستطلاع.

أما القسم الذي يتعلق بي في السورة؛ فيمكن أن نفهم من

قوله سبحانه: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ أن على رجل الدولة أن يقوم بتفتيش الجيش وكافة مؤسسات الدولة حتى أصغر فردٍ فيها. ويعترينـي العجب حين أقرأ قوله تعالى: ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾، كيف عرف سليمان عليه السلام أفراد جيشه العظيم بهذه الدقة، وكيف انتبه إلى غياب جَدّي الهدهد بنظرةٍ واحدةٍ في هذا الجيش الجبار!؟ ربما كان سيدنا سليمان عليه السلام ينوي أن يكلف جَدّي بمهمة، وعندما افتقده سأل عنه. وربما كان سليمان عليه السلام قد أدرك أن الله سبحانه وهبنا القدرة على كشف مواطن الماء، فأراد أن يكلف جَدّي بالكشف عن هذه المواطن. فكما نقل الطبري والبيضاوي من علمائكم؛ أن سليمان عليه السلام كان قد نزل بجيشه في مكانٍ قريبٍ من صنعاء اليمن، فلم يجد ماءً، فبحث عن جَدّي الهدهد ليستكشف له مواطن الماء.

ولعلكم الآن ستسألونني عن حقيقةِ قابليّتي في الكشف عن مواطن الماء؟ أخشى إنْ أجبتُكم، أن أفسد "سرَّ التكليف" في هذا الأمر. فعندكم المختبرات والمعاهد والجامعات، ويمكنكم البحث والدراسة في هذه القابلية حتى تصلوا إلى الجواب الشافي والوافي. ولكن يكفي أنْ أقول لكم، إنه من أجل البحث عن الماء في باطن الأرض، ينبغي عليكم -أولاً- أن تدرسوا هيكلية سطح الأرض، وتطلعوا على شكل انحدار طبقاتها من الجو. وإنْ سألتم عن السبب في اختيار سيدنا سليمان عليه السلام جَدّي من بين جميع الطيور، أقول: لأنه يملك قدرة خاصة في الكشف عن الماء في باطن الأرض. وهو أمر عظيم يهتم به اليوم علماء "الجيولوجيا المائية" من بين علمائكم في الجيولوجيا ويعملون بجدٍّ في هذا المجال.

حكمة الآيات

عندما افتقد سيدنا سليمان عليه السلام جَدّي الهدهد قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾؛ وأعتقد أن المقصود من ذلك، وجوب الاستئذان من القائد عند مفارقة الجماعة ولو كان ذلك في سبيل عمل نافع صالح لها، بالإضافة إلى أن التسيب والخروج عن الطاعة يستوجب العقوبة في سبيل بقاء الجماعة متماسكة. ويستفاد من هذه الحادثة أيضًا، أنه يمكن للفرد أن يتصرف بغير إذن قائده، اغتنامًا لفرصةٍ لا يمكن معها الانتظار، وأن على القائد أن يتصرف بما تقتضيه العدالة وينصت إلى الأعذار التي يبديها المخالف قبل إنزال العقوبة به. أما عقوبة "الذبح" -في اعتقادي- يمكن أن تنفّذ عند الخيانة العظمى التي تستهدف الأمة كلها، أو تستهدف النيل من قوتها مع جيشها، كالتجسس وإفشاء الأسرار العسكرية للعدو، والفرار من الزحف، والنفير العام للجيش. وهذا التهديد في رواية أخرى، سببه أن جَدّي كان قد تخلف عن نوبته في الحراسة.

وفي الآيات (٢٢-٢٦) نرى جَدّي الهدهد في دفاعه عن نفسه، يبيّن لرئيس الدولة الموضوع الهامّ الذي شاهده ووقف عليه. وهنا أيضًا دروس وعبَر ينبغي لنا الوقوف عندها، فنرى في البداية، تصرف سيدنا سليمان عليه السلام العادل مع رعيته، فكل فرد يمكن أن يتحدث معه في راحة تامة، وبهذا العدل استطاع جدّي الهدهدُ أن يقول له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾؛ فهو يريد أن يقول له "على الرغم من أنك رئيس دولة، فإن لقوتك وقدرتك حدودًا، فهناك بلدان لم يبلغها سلطانك، ولم تعلم عنها شيئًا بعدُ... لقد اكتشفت بلدة سبأ وأمعنت البحث في واقعها، وتوصلت إلى معلومات

أكيدة عنها أضعُها بين أيديكم. لأن المعلومات التي تقدَّم إلى الدولـة ينبغـي أن تعلو على الشـبهات. كما أننـا نرى أيضًا أن جَدّي الهدهد عندما حاول شـدّ اهتمام سـيدنا سـليمان عليه السلام بالحديـث عـن غنى بلقيس ملكة سـبأ وثرائها، وعن عرشـها وعظمته، فإنه عليه السلام لم يُبْدِ أيّ اهتمام بذلك، حتى إذا شرع في الحديث عن شـركهم وعبادتهم للشـمس، راح سـليمان عليه السلام يسـتمع إليه بدقة ويبدي اهتمامه بالأمر، لأن تبليغ المتمرغين بأوحـال الشـرك والكفر والانحـراف، ودعوتهم إلـى الهداية والإيمان بالله واتباع أمره، هي مهمة الأنبياء الأولى.

ولكن لم يصدّق سيدنا سليمان عليه السلام جَدّي الهدهد مباشرة، بل عامله كالمتهم ووضعه تحت الاختبار؛ حيث لم يعتمد على الأخبار التي جاء بها، ووضع احتمالَ أنْ تكون كذبة من الهدهد لتبريـر غيابه، ﴿قَالَ سَـنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْـتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. ويبـدو هنا جليًّا التركيـز على وجوب التريث في الحكم على مجتمـع بأكمله بناءًا على خبر واحد. ثم أراد سـيدنا سـليمان عليه السلام استكشـاف الموقـف، فاسـتعمل جَدّي الهدهد كسـاعي بريـد: ﴿اذْهَـبْ بِكِتَابِـي هَذَا فَأَلْقِـهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَـوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾، لكنه لم يكن كالحمام الزاجل الذي يستخدم لتبليغ الرسائل فقط؛ لأن سيدنا سليمان عليه السلام طلب من جَدّي، الابتعـاد قليلاً وانتظار ما سـيحدث... فهي مهمة اسـتطلاعية يريد من خلالها أن يعرف ردود أفعال مملكة سبأ للأوامر التي تحملهـا الرسـالة، وعليها يتوقف تصرفه معهم وإسـتراتيجيته بمـا يقتضيـه واجـب الأمـر بالمعـروف والنهي عـن المنكر؛ فإما أن يختار الاسـتعداد للحرب، وإما أن يبادئهم بالحسـنى ويرسـل لهم الهدايا لعلهم يتعظـون. ولذلك كان يولي أهمية كبيرة لما سـيقوم به جَدّي من استشـعارٍ عن بُعْد واسـتطلاع.

أيهـا الإنسـان المحتـرم، كنـت أنـوي -كباقـي أصدقائي الحيوانات التي تحدثت قبلي- أن أتحدث عن حُسْـنِ الخِلْقة التي فطرني عليها ربي، وتجليات أسـمائه الحسنى في بنياني، لكنـي وجـدت القرآن الكريـم يتحدث عني في هـذه القصة، فارتأيتُ الوقوف عندها وتقديم وجهات نظري حول معانيها. وبيـان القـرآن الكريم المعجز، لابد من تفسـيره في كل عصرٍ بمـا يحملـه ذلك العصـر من علم ورُقـي. وقد تحدّثـتُ قدْر فهمـي وبمنطـق الطيـر لدي. لعله يخـرج منكم مَن هو أشـد علمًـا منـي، ويقـدم لكم تفسـيرًا أقـرب للفهم وأكثـر إقناعًا. فأنـا لا أدعي الحقيقة، بل أحـاول الاقتراب منها، والموضوع مفتوح للمكتشفات الجديدة، وربما استطعتم أن تفهموا ألسنة

الحيوانات كسيدنا سليمان عليه السلام وتفهموا عنها الكثير. هذا وإن بديع الزمان سعيد النورسي يشير إلى الاستفادة من طير الزرزور في مكافحة الجراد. وكذلك يوجد في الطيور الأخرى طاقات فطرية، لعلكم تجدون سـبُل الاسـتفادة منها مع مرور الأيام.

ومما يجدر ذكره هنا، أنه ورد ذكري في "التلمود" باسم "ديك البيان"، وورد ذكري في التوراة بين الطيور التي لا يؤكل لحمهـا. أُعْرفُ باسـم جاويش الطيور بسـبب عرفـي الطويل الذي يعلو رأسي. وعلاوة على مجرى التنفس، أستطيع تنفس الهـواء من مجرى الطعام من منقاري بسـبب شـكله الأنبوبي الخـاص، وبذلـك أتمكن من إصـدار أمواج صوتية مُرْتعِشـة كأنهـا تصدر من المِرْنـان. أعيش في مصر والحبشـة (أريتريا والصومال وإثيوبيا) وأنغولا والشرق الأوسط وتركيا وجنوب أوربا الشرقية. أقوم بهجرات موسمية قصيرة. أحتضن (٥-٨) بيضات أضعها في نهايات الربيع في مدة (١٥-١٧) يومًا.

وعلى الرغم من أني لا أبدو مختلفًا في مظهري الخارجي عن سائر الطيور إلا بشكل منقاري وعرفي فوق رأسي وألواني، فإنني أعتقد بأنه ينبغي عليكم البحث في قدراتي على السمع والبصـر والشـم والقـدرات المودعـةِ في دماغـي، فضلاً عن الدراسـات البيولوجيـة والبيئية، وذلـك انطلاقًا من قصتي في القـرآن الكريم. وهـذه وظيفتكم باعتباركم عبـادًا منحكم الله نعمـة التفكيـر والتدبر. لذا عليكم أن تفكـروا في الحكمة من ذكـر قصتي في القـرآن الكريم، وأن تتأملوا وتفكروا في خلق السماوات والأرض في كتاب الكون المنظور. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.

قصة

محمد قاسم الهندي*

الجندي الصغير

يقود الليل أجنحته السوداء ليحتضن العالم بعباءة سوداء، مبرقعة بنقاط بيضاء لامعة بعد أن غربت الشمس الواهنة، التي كانت تسلط أشعتها الفاترة على إحدى القرى الملتهبة بنار الحرب.

في هذا الوقت توجه النقيب إلى معسكر حمزة الذي كان يخوض غمار المعركة مع قوات الوحدة في جبهة الضالع ضد الردة والانفصال. توجه إلى المعسكر بعد أن التقى بسكان تلك القرية، وحثّهم على الدفاع عن الوحدة الوطنية، وطلب منهم العون والمساعدة، ليتسنى لهم صد كيد الأعداء المتآمرين على وحدة الشعب. وبينما كانت السيارة العسكرية مسرعة باتجاه المعسكر، محملة بما أمكن تجميعه من عتاد حربي، وزاد للجنود الذين يخوضون غمار المعارك الضارية في الجبهة، وجد النقيب امرأة شابة تشير إليه أن يتوقف.

اعتلت الدهشة وجهه المتجهِّم الذي اشتعل بموجة من الأسئلة... "من تكون هذه المرأة؟ وماذا تريد؟ ولماذا وقوفها في منتصف الطريق في هذا الوقت وقد حل الظلام؟ ودارت في رأسه بعض الظنون ووجد أن الأمر لا يعدو كونه مكيدة حِيكتْ ضده من قبل بعض العملاء الذين يساندون الأعداء، إلا أنه طارد هذه الظنون ووجد أنه لابد من التوقف لمعرفة بغية هذه المرأة وماذا تريد. قال في نفسه: "لو لم يكن هناك

أمـر مهـم، لما وقفت في مثل هـذا الوقت في هـذا المكان"، وهدّأ من سـرعة سيارته العسكرية ليتوقف حيث كانت تقف، وكان شـديد الحذر والحرص. تقدمت المرأة نحوه، فأشـعل عود الكبريت ليتسنى له معرفة شخص هذه المرأة على ضوء خافت، وقبل أن يسـألها عن بغيتها ومن تكون، تحدثت قائلة بعد أن أقرأته السلام:

– وجدتك في القرية تدعو الناس وتحثهم على الدفاع عن الوحـدة، وتطلب منهم العون والمسـاندة، وأنـا امرأة لا قدرة لي على القتال ولا أملك ما أبذله في سبيل الوطن والواجب، وها أنا ذا قد أتيتك بمجموعة من الكعك الناشف صنعته بكل مـا تبقـى من دقيق القمح، ولو كان بوسـعي أن أحضر المزيد لمـا تأخـرت، خذه لعله يسـد رمق جائع لا يجـد ما يأكله في خندق القتال.

دفعـت إليه ما كان في حوزتها وذهبت وهي تبكي. احتار النقيـب في أمر هذه المرأة، فهي فقيـرة ولم يمنعها فقرها من المشـاركة في مسـاندة جنود الوحدة. تحركت السيارة باتجاه المعسـكر مسـرعة. كان النقيب يفكر بأمر هذه المرأة، مقدّرًا لها هذا الحس الوطني النبيل تجاه الوطن... الشيء الذي رفع مـن معنوياته مدركًا أن شـعبًا عظيمًا يقف وراء قيادته مضحيًا بـكل غـالٍ ونفيس، وليسـت هذه المـرأة إلا نموذجًـا للمرأة المسـلمة التي وقفت بشـجاعة وفـداء، تؤازر الجنـود وتقدم لهـم العـون والمسـاندة. وعند وصولـه إلى المعسـكر، تلقى الأوامـر أن يواصل السـير حتى جبهات القتـال ليأخذ للجنود مـا كان يحمل من تبرعات تلك القرية. وعند وصوله خطوط المواجهـة، أوقـف سـيارته وحمل بعض الكعـك وتوجه إلى الجنـود المرابطين في جبهـات القتال، وأخذ يدفع لهذا بعضًا مـن الكعك وذلك بشـيء مماثل... فإذا بـه يجد طفلاً صغيرًا يحمـل بندقيـة قديمـة، إذا أطلق بها عيـارًا ناريًـا تركها لتبرد، وحتى إذا ما بردت أطلق عيارًا آخر وتركها لتبرد مرة أخرى... فأشـفق عليه وخشـي أن تصيبه نيران الأعداء، فأمره أن يعود إلـى الخطـوط الخلفيـة... فطلب منه الصغيـر أن يتركه يقاتل ويقتحـم التحصينات التـي كان يتمترس فيهـا الأعداء... نظر النقيب مذهولاً بشـجاعة هذا الطفل، الذي كاد يلتهم الأعداء بعينيـه الصغيرتيـن يريـد أن يحطمهـم ويقتحـم تحصيناتهم. ونظـرة أخرى برزت تتأمل في ابتسـامة عريضـة تلك البندقية التي كانت تواجه عتادًا عسكريًا حديثًا... وبينما هما يتحدثان في صمت، كلٌّ يشعر بما يدور في ذهن الآخر، بدأت الطائرة "ميج ٢١" المسـاندة لقوات الأعـداء، بقصف الجنود بالقنابل لتسـقط قنبلـة بالقرب مـن مـكان النقيب والجنـدي الصغير، ليصاب الأخير بشـظية في رأسـه تلقيه علـى الأرض. النقيب أيضًا أصابته شـظية في رجله اليسـرى، لم يشـعر بها لأنه كان مهتمًّـا بما آل إليه مصير الصغير. وقبل أن يموت هذا الصغير أدركه النقيب ليسمع ما كان يهمس به:

– إن كُتبتْ لك الحياة وعدتَ إلى القرية التي أسـكن بها، فستجد أختًا لي هناك تنتظر عودتي منتصرًا لتشيع حثماني...

وقبل أن يموت الصغير دفع إليه بندقيته وخاتمًا فضيًّا كان فـي يده، وأوصـاه بإيصالهما إلى منزلهم، لعـل مناضلاً هناك ينتظر دوره في الموت والاستشهاد في سبيل الله والوطن.

كانـت هذه العبـارةَ الأخيرة التي تلفظ بهـا البطل الصغير قبل أن يستشـهد ويفـارق الحياة. ذرفت عينـا النقيب الدموع لفقـدان هـذا الصغيـر الذي يجسـد معنى الكفاح والشـجاعة والحب والولاء لله والوطن...

وبعـد أن خـرج النقيب من المستشـفى، توجـه إلى القرية حيث تسـكن أخت الشـهيد الصغير، حاملاً البندقية والخاتم. وبينمـا كان يسـير علـى قدميـه وقد بدا شـديد التعب بسـبب الإصابـة، وقعـت عيناه على امرأة عجـوز تهش على أغنامها، فسـألها مـا إذا كانـت تعرف البيت الذي تسـكنه تلـك المرأة الشـابة، التي استشهد أخوها في المعركة منذ أمد غير بعيد... نظرت العجوز إليه طويلاً، متأملة البندقية وقالت وهي تبتسم:

– هل استشهد الصغير؟

– نعم

– متأكد؟

– نعم... وكنت إلى جواره، وأنا الذي أحمل وصيته.

– الحمد لله.

واقتربت منه ومدت يدها لتأخذ البندقية، فيما كان النقيب غارقًا في دهشته وذهوله شارد الحس، يفكر بأمر تلك العجوز التي تبتسم وهي تسأل عن موت الصغير قائلة:

– هل أوصاك بإحضار شيء آخر غير البندقية؟

نظـر إليها النقيب وقد زادت دهشـته وذهولـه، فتلعثم في إجابته:

- شيء آخر! مثل ماذا؟
- خاتم فضي مثلاً.
- نعم أوصاني بأن أحضره والبندقية.
- أين هو إذن؟

نظر إلى البندقية ومد يده ليأخذها وهو يقول:

- بأي صفة تريدين مني أن أسلمك الخاتم؟

فردت عليه العجوز هادئة غير مبالية:

- إنه حفيدي.

نظر النقيب إليها، وتأمل وجهها المتجعد وهو غير مصدق أن ذلك الصغير حفيدها، قال:

- لا يبدو أنه حفيدك، لو كان حفيدك لما وقفتِ هكذا مبتسمة.

قالت العجوز:

- وماذا تريدني أن أعمل؟! لقد مات وسوف نموت كلنا... مات شهيدًا وسيدخل الجنة، وعليّ أن أفرح لأن حفيدي دخل الجنة وفاز بها رغم صغر سنه.

كاد النقيب أن يقع على الأرض وهو يسمع منطق هذه العجوز التي تفرح لموت حفيدها، إذ لم تحزن ولم تذرف دمعة واحدة، ولم تسأل حتى عن الجثة، بل إنها مشغولة بالخاتم الفضي، إنها ليست كما ادعت. كل ذلك كان يجوب في ذهن النقيب الذي أخذ البندقية وترك العجوز متوجهًا نحو القرية، دعته العجوز أن يتوقف فتجاهل دعوتها، فقالت له:

- عند وصولك إلى القرية ستجد بيتًا أبيض بجانب شجرة عنب مثمرة، تلك الشجرة لنا، وذلك المنزل منزلنا، اطرق الباب فستفتح لك امرأة شابة هي حفيدتي وأخت الشهيد، وأثناء طريقك إلى البيت ستجد دكانًا صغيرًا عند مدخل هذه القرية يجلس فيه رجل عجوز يقوم بخياطة الملابس، أرجوك أن تعرج إليه وتقول له، إن الصغير قد مات ولا داعي لأن يخيط ملابسه لهذا العيد، فنحن فقراء ولا نريد أن ندفع ثمن ملابس لا نجد من يرتديها بعد موت الصغير.

اشتعل النقيب غضبًا وقال في نفسه: "يا لك من امرأة حمقاء! حفيدك فارق الحياة وأنت غير مبالية، وكل ما تفكرين فيه هو الملابس وثمن الملابس ومن سيرتديها.

وسار في طريقه غير عابئٍ بما كانت تقوله العجوز... وعند وصوله القرية، نظر إلى دكان الخياط فلم يعرج إليه، وسار متجهًا إلى البيت الأبيض المتميز بتلك الشجرة المثمرة. وقبل أن يطرق الباب فكر لحظة بأمر الأخت... كيف سينقل إليها خبر موت أخيها... طرق الباب وهو ما يزال يفكر. فُتح الباب وخرجت منه امرأةٌ شابة... إنها تلك المرأة التي أوقفت سيارته في منتصف الطريق، ودفعت إليه تلك المجموعة من الكعك. ارتعد النقيب خوفًا ودهشة وذهولاً وتقديرًا واحترامًا لشخص هذه المرأة الفقيرة، التي دفعت إليه ما كان في حوزتها وذهبت وهي تبكي. كاد النقيب أن يفقد وعيه وهو يقف أمام امرأة بهذا الحس الوطني، فقبل أن تدفع الكعك دفعت أخاها وهو ما يزال صغيرًا، للدفاع عن الوحدة والوطن.

نظرت المرأة نحوه وأدركت سبب قدومه، أدركت أن أخاها قد استشهد... فارتفع صوتها مزغردًا... وقف النقيب يتأمل فرحة هذه المرأة حائرًا، يكاد لا يصدق ما تسمعه أذناه وما تشاهده عيناه، إن أمر هذه الأسرة غريب؛ ابتسمت العجوز وهي تسأل عن مصير الصغير وما إذا كان قد مات أو أنه على قيد الحياة، وهذه المرأة الشابة عبرت عن فرحتها بموت أخيها وهي تطلق الزغاريد لتجلجل في السماء. تذكر النقيب الكلمات الأخيرة التي همس بها الصغير وهو يودع الحياة: "إن كُتبت لك الحياة وعدت إلى القرية التي أسكن فيها، ستجد أختًا لي هناك تنتظر عودتي منتصرًا لتشيع جثماني". أدرك النقيب أنه يقف أمام أسرة نموذجية.

فمن منا سوف يعيش إلى الأبد؟ وإذا كنا سنموت فلماذا لا نموت شهداء؟ فليس هناك أعظم من أن نموت ونحن ندافع عن قضية وطنية وإنسانية... لأن الوحدة بالنسبة لأبناء المسلمين هي التضحية الكبرى التي ناضل من أجلها البسطاء طويلاً، واعتبروها قضية وطنية وإنسانية وفكرية...

أدرك النقيب أن ضميرًا لا إراديًّا يحرك النزعة الوطنية عند البسطاء الذين يهبون الحياة رخيصة في سبيل قضاياهم ولا ينتظرون ثمنًا لما بذلوه.

مد النقيب يده إلى كتفيه وانتزع الرتبة العسكرية التي منحت له ثمنًا لدور عظيم قام به دفاعًا عن قضية عظيمة. فالنقيب أراد أن يكون بسيطًا كهؤلاء الساكنين في هذا البيت الأبيض. ■

(*) كاتب وأديب يمني.

أ.د. بركات محمد مراد*

الجزري

اختراعاته العلمية وتطبيقاته الميكانيكية

هو بديع الزمان أبو العز أبو بكر إسماعيل بن الرزاز"، الملقب بـ"الجزري" نسبة إلى موطنه "أرض الجزيرة" بين نهري دجلة والفرات بالعراق. لا يعرف الكثير من حياة الجزري، حيث تخلو كتب التراجم من ذكره، ومن المعتقد أنه ولد عام (٥٦١هـ-١١٦٥م) في أرض الجزيرة، وتوفى عام (٦٠٧هـ-١٢١٠م) وإن كانت بعض المصادر تشير إلى وفاته عام (٦٠٢هـ-١٢٠٦م).

ومن الثابت أنه خدم في بلاط ملوك "ديار بكر" التركمانيين الذين كانوا تابعين للدولة الأيوبية في عهد مؤسسها "صلاح الدين". وقد رفعته خبرته العلمية وقدراته الابتكارية في الاختراع والإنشاء إلى مرتبة "ريس الأعمال" أي كبير مهندسي الدولة.

ولا تتوافر تفاصيل كثيرة عن مرحلة الدراسة في حياة بديع الزمان الجزري، لكن من المقطوع به أنه درس الرياضيات وما توافر في عصره من معلومات فزيائية ومعلومات خاصة بالتطبيقات الصناعية، وأنه كان دائمًا يقرن الدراسة النظرية بالتجريب، ولا يثق بالنظريات الهندسية ما لم تؤكدها التجارب العملية. وكذلك تقع إنجازاته في دائرة الاختراعات الميكانيكية وصناعة الآلات، وكان هذا المهندس البارع معنيًّا -بصفة خاصة- باستخدام الحقائق العلمية والخبرة التكنولوجية في صناعة ما ينفع المجتمع من آلات مبتكرة.

إنجازاته العلمية وكتابه القيم

وتتضح إنجازات الجزري العلمية من كتابه الهام "الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل"، وهو كتاب في الهندسة الميكانيكية، يعد -بحقٍّ- أروع ما كتب في القرون القديمة والوسطى عن الآلات الميكانيكية والهيدروليكية.

وقد اشتهر هذا الكتاب كثيرًا في العالم الغربي، وترجمت فصول كثيرة منه في الربع الأول من القرن العشرين إلى اللغة الألمانية، وقام بالترجمة كل من "فيدمان" (Wiedmann) و"هاوسر" (Hawser)

اللذيـن قاما بأبحاث هامة جدًّا فـي تاريخ العلم والتكنولوجيا عنـد العرب. كما صـدرت ترجمـة كاملة باللغـة الإنجليزية، قـام بهـا "دونالد هيـل" (Donald Hall) المتخصـص في "تاريخ التكنولوجيا العربية".

ومن دراسـة فصول الكتاب ندرك في الحال، أن الجزري كان راسخ القدم في فنه، وأنه كان ملمًّا بكل الفنون الميكانيكية والهيدروليكية إلمامًا قويًّا. ونفهم من مقدمة الكتاب أنه قد ألفه بطلـب من ملك "ديار بكر" الملـك "الصالح ناصر الدين أبي الفتح محمود بن قَرَ أرسلان بن داود بن سكان بن راتق" الذي تولـى الحكم ما بين عامي (٥٩٧-٦١٩هـ). يذكر الجزري أنه كان قبـل ذلـك في خدمـة والد هذا الملك وفـي خدمة أخيه، وأن خدمتـه تلك بـدأت في عام (٥٧٠هـ-١١٧٤م)، وأنه قد قضى خمسة وعشرين عامًا في خدمتهم.

ومـن المؤسـف أن النص العربـي الكامل لهـذا الكتاب، لـم ينشـر إلا بعد نقله إلـى الألمانية والإنجليزيـة، وقام معهد التـراث العلمـي العربي بإصـدار نصه العربـي الكامل، حيث قام بتحقيقه الدكتور المهندس أحمد يوسف الحسن بالتعاون مـع الدكتـور عماد غانم ومالك ملوحـي، اعتمادًا على صورة كافة مخطوطات الجزري المعروفة والموجودة في المكتبات العالمية المختلفة، وأفضلها مخطوطات إسـطنبول (مخطوطة طوب قابي سَرايِي، رقم ٣٤٧٢).

ويعتبـر كثير مـن الباحثين وعلماء التكنولوجيـا التطبيقية، أن هـذا الكتـاب أهـم مؤلف هندسـي وصل إلينـا من جميع الحضارات القديمة والوسـيطة التـي عرفها العالم حتى عصر النهضة الأوربية. ولا ترجع هذه الأهمية فقط لاشتمال الكتاب على أوصاف مهمة للآلات الميكانيكية التي ابتكرها ووصفها الجزري، بل ترجع أيضًا إلى اشتماله على طرائق صنعها؛ فقد وصفـت هذه الطرق بتفاصيـل وافية وإرشـادات دقيقة أمكن معهـا صنعها في عصرنا بأيدي الفنيين. وكل ذلك قد أكسـب كتاب الجزري شهرة واسعة، وظفر له باهتمام كبير في الغرب.

ومن الجدير بالذكر أن الباحث والمستشرق "دونالد هيل"، نال عن ترجمته لكتاب الجزري إلى الإنجليزية، وكتابة رسالة شاملة عن "بديع الزمان الجزري وتاريخ التكنولوجيا الإسلامية" جائـزة "دكسـتر" الدوليـة التـي تمنـح لأصحـاب الإنجازات المتميـزة في مجالات التكنولوجيا. وهناك باحث ياباني اهتم بالجانب التشـكيلي في كتـاب الجزري وتوفر على دراسـته، ونشـر دراسـات عن الرسوم الهندسية والأشـكال التوضيحية التـي حفلت بها إحدى مخطوطات الكتاب، وهي المخطوطة المحفوظة بالمكتبة السـليمانية بجامع "أياصوفيا" بإسـطنبول.

ولأهميـة الكتـاب الكبيـرة فـي نظـر الغـرب، قـال عنـه المستشرق المهندس التكنولوجي الإنجليزي الدكتور "دونالد هيـل": "لم تصلنا حتى العصور الحديثة وثيقة من أية حضارة أخـرى فـي العالم، فيهـا ما يناظر مـا في كتـاب الجزري من ثـراء فـي التصميمـات والشـروح الهندسـية الخاصـة بطـرق صناعـة وتجميع الآلات". ويقول مؤرخ العلم الكبير "جورج سـارتون": "هـذا الكتاب هـو أكثر الكتب مـن نوعه وضوحًا، ويمكن اعتباره الذروة في هذا النوع من إنجازات المسلمين".

أهمية كتاب "الجامع" ومحتوياته

يقـع الكتـاب في خمسـة أجـزاء يختـص كل منها بقسـم من أقسـام الحيـل أو تكنولوجيـا الصناعـات، ويجمع بيـن دفتيه الموضوعـات التاليـة: السـاعات المائيـة، السـفن، أحـواض القيـاس، النافـورات، آلات رفع المياه التي تعمل بقوة جريان المـاء، بعض الآلات المفيـدة كالأبواب والأقفال... وقد ركز الجـزري فـي كتابه، علـى أهمية التجريـب وأهمية الملاحظة الدقيقة للظواهر التي تكون أساسًا للاستنتاجات العملية.

ويلخص الكتاب معظم المعارف المتراكمة عن الهندسـة الميكانيكيـة حتـى ذلـك الوقـت، مـع تطويـرات وإبداعـات للجزري نفسـه، وتكمن أهميته جزئيًّا فيما يتضمنه من وصف لآلات ومكونـات وأفكار. وبالقدر نفسـه مـن الأهمية، تبدو حقيقـة أن الجزري صنـف كتابه مع إصرار مُعلن على تمكين الصنـاع مـن بعـده من إعـادة تركيب آلاته، حيث قـدم وصفًا مدققًـا لـكل من الخمسـين آلة يتضمـن صناعتهـا، وتركيبها، والأجزاء المكونة لها... وكما يقول المستشرق "دونالد هيل": "فقد زودنا بثروة هائلة من المعلومات المتعلقة بطرق ومناهج المهندسين الميكانيكيين في العالم الإسلامي".

ومما حفـل به الكتـاب: وصـف الجزري خمـس آلات لرفـع المياه تعمل بقوة جريان المـاء في مجراه الطبيعي. وقد جعلها الجزري ذات تصميمات مختلفة لتناسـب الارتفاعات المتباينـة التي يلزم نقـل الماء إليها... وقد تركت هذه الآلات بصمة واضحة على تاريخ صناعة الآلات في العالم. وكذلك وصف الجـزري النموذج الأول للمضخة المائية التي مهدت السـبيل لابتكار المحـرك البخاري وآلات الضـخ التي تعمل

بالمكابس أو الأسطوانات المتداخلة.

ابتكاراته المتميزة

ووصف الجزري العديد من أنواع الساعات المائية والرملية، ومن بينها ساعات مائية تقوم فكرةُ عملها على تعبئة وتفريغ الماء من وعاء لآخر بمعدل ثابت. وبعض هذه الساعات مزود بآليات معقدة جدًّا تعتمد في عملها على حركة الماء في دورة مغلقة، وينتج عنها مؤثرات خلابة، مثل صدور أصوات موسيقية في أوقات معينة، أو بروز دُمية لتؤدي حركات طريفة بغرض التنبيه إلى أوقات الساعة.

لقد اخترع الجزري عددًا من الساعات المعروفة في زمانه باسم"البنكامات" أو "الفنكامات"، ومن بين هذه الساعات؛ ساعة الطبالين وهي ساعة بها طبالون يدقون طبولهم بعد كل ساعة تمضى، ليعرف الناس كم مضى من الساعات، ومن بينها ساعة على شكل زورق توضع للزينة في قاعات الاستقبال، وتحدد للضيوف الأوقات، ومن بينها ساعة مستوية، بها فيل يرفع خرطومه مرة أو عدة مرات كلما مضت من الزمن ساعة أو عدة ساعات، ومن بينها ساعة مائية من تصميم الجزري وتنفيذه، وتعمل ميكانيكيًّا بحركة الماء.

كما ابتكر الجزري أيضًا، عددًا من النوافير أو الفوارات لحدائق القصور في زمانه بشمال العراق، كذلك ابتكر الجزري عددًا من آلات التحريك للأشياء، وابتكر أيضًا دواليب ترفع المياه من البحيرات والآبار والأنهار... ومن بين ابتكارات الجزري، آلة ترفع الماء إلى نحو عشرين ذراعًا بواسطة دولاب من الماء السريع الجريان. وابتكر زورقًا متحركًا يوضع في بركة في مجالس السمر الليلية. وابتكر آلة ترفع الماء من بئر أو نهر بواسطة دابة تديرها لتمد الأراضي الزراعية بالمياه. وابتكر فوارة ذات عوامتين، تتبادلان العمل صعودًا وهبوطًا دون توقف أو انقطاع، فيستمر الماء في التدفق إلى أعلى. وابتكر تمثال بقرة على قرص عمود مجوف موضوع في وسط بركة، وتدير هذه البقرة دولابًا يرفع الماء من البركة إلى ارتفاع يصل إلى أكثر من مترين. وقد أبدع الجزري في رسم أشكال هندسية رائعة الجمال كان الصناع ينفذونها ويزينون بها أبواب المساجد والقصور.

الجزري والهندسة الميكانيكية

كان تأمين الماء من أجل الشرب والري وللأغراض المنزلية والصناعية، أمرًا حيويًّا في البلاد العربية والإسلامية؛ لم تكن هناك أمطار غزيرة وأنهار وجداول كثيرة كما هو الحال في شمال أوربا، والمناطق التي كانت تهطل فيها الأمطار بكميات وفيرة تكفي للزراعة دون الحاجة إلى الري. ومن هنا تحتاج عمليات الري في كثير من الأحيان، إلى وسائل لرفع الماء لتلبية الحاجات الأساسية كالشرب والطبخ، أو لتزويد الأراضي الزراعية بالمياه اللازمة للزراعة.

لقد حاول المهندسون العرب والمسلمون، تحسين وسائل رفع الماء. ونجد ذلك واضحًا لدى كل من الجزري، وتقي الدين، إذ وصف كل منهما آلات لرفع الماء حاولا فيها تطوير الأنواع المعروفة. وقد خصص الجزري في كتابه "الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل"، فصلاً خاصًّا لآلات رفع الماء وصف فيه خمسة أنواع يحتوي كل منها على تحسينات وابتكارات.

فالآلة الأولى، فيها تحسين كبير لعمل الشادوف، وهي آلة تدور بقوة الحيوان كما هو الحال في الساقية، والجزء الذي يغرف الماء عبارة عن مغرفة لها ذنب طويل أجوف كالميزاب، والمغرفة مربوطة عند نهاية ذنبها بمحور أفقي بحيث إنها تتحرك معه، ويحمل المحور عند أحد طرفيه ترسًا ويوجد بمحاذاة هذا الترس ترس جزئي يحمله محور مواز لمحور المغرفة. وفي الطرف الآخر لهذا المحور الثاني ترس رأسي يديره ترس أفقي، وهذا الترس الأخير يديره الحيوان المربوط بعمود الجر، يدور الحيوان في مسار دائري كما هو الحال في الساقية، ويدير زوج دواليب المسننة -بالتالي- المسنن الجزئي، وتتعشق أسنان هذا الأخير بالمسنن المقابل وتديره، وترتفع المغرفة إلى الأعلى وتفرغ محتوياتها من الماء إلى القناة، وعندما ينتهي تعشق الأسنان الجزئي، تسقط المغرفة ثانية إلى الماء لتمتلئ وتتكرر العملية باستمرار. ونجد أن الجزري يصف لأول مرة الدولاب المسنن جزئيًّا، وقد استخدم هذا النوع من المسننات في أوربا بعد حوالي مائتي عام من تاريخ كتاب الجزري.

والآلة الثانية للجزري مماثلة للأولى، إلا أنها مزودة بأربع مغارف، ويحرك كل مغرفة مسنن جزئي، وكانت الأسنان الجزئية موزعة بالتساوي على محيط الدائرة بحيث تقوم المغارف بعملها في مسافات زمنية متساوية. ويقول الجزري إن هذا التوزيع يجعل عمل الآلة أكثر هدوءًا، ونحن هنا أمام

نفس مبدأ عمود الكامات في المحركات والضاغطات الحديثة.

الآلة الثالثة للجزري كانت أكثر تطويرًا للساقية، إذ إن الساقية تدور هنا بقوة الماء وليس الحيوان. وصف الجزري هنا آلة على مقياس صغير لإقناع المتفرجين، يرى المشاهد منشأة ظاهرة للعيان مركبة إلى جانب مصدر الماء، وتحت المنشأة بركة ينزل إليها الماء من المصدر بواسطة أنابيب، هناك سلسلة دلاء ترفع الماء من البركة، وتحت البركة يوجد حوض مخفي يحتوي على الآلات المحركة، ويمتد ضمن هذا الحوض المخفي عمود أفقي، مثبت على أحد طرفيه دولاب ذو كفات شبيه بالمغارف (دولاب عنفة)، وفي أرضية البركة ثقب يندفع منه الماء ويصطدم بالمغارف مسببًا تدوير الدولاب، وعلى الطرف الآخر للمحور يوجد مسنن رأسي يتعشق مع مسنن أفقي يمتد محوره الأعلى نحو المنشأة الظاهرة، وفي أعلى هذا المحور الأخير يوجد زوج من المسننات، ويركب الدولاب الحامل لسلسلة الدلاء على المحور الأفقي للمسنن الرأسي، وتصب الدلاء ماءها إلى قناة تنقل الماء إلى مصدره، وتبقى سلسلة الدلاء دائمة الحركة ما دام الماء يتدفق من أرض البركة مرتطمًا بالمغارف. ومن أجل إمتاع الناظرين، ربط بالمحور الرأسي نموذج لبقرة من الخشب تدور مع المحور فوق مبيضة ثابتة مستديرة دون أن تلمس أرجلها المنصة، ويبدو للناظر الذي لا يعلم مصدر الحركة وكأن البقرة هي التي تدير الساقية.

الآلة الرابعة للجزري شبيهة بالآلة الأولى، إلا أنه استخدم فيها لأول مرة في تاريخ الهندسة الميكانيكية آلية المرفق والكتلة المنزلقة (Scotchyoke Mechanism) التي تحول الحركة الدورانية إلى حركة ترددية خطية.

وفي الآلة الخامسة، خرج الجزري عن نطاق آلات رفع الماء التقليدية، إذ استخدم في هذه الحالة، مضخة ماصة كابسة ذات أسطوانتين متقابلتين، تكون الواحدة في شوط المص عندما تكون الثانية في شوط التصريف. واستخدم هنا آلية المرفق والكتلة المنزلقة، من أجل تحويل الحركة الدورانية إلى حركة ترددية، وأعطى أسلوبين للقوة المحركة أحدهما باستخدام دولاب عنفي ذي أجنحة، والثاني باستخدام دولاب ذي مجاديف يدور كما تدور الناعورة.

أدخل الجزري في هذه الآلة عدة ابتكارات، فهنا نجد أقدم تطبيق لمبدإ المفعول المزدوج في الآلات المكبسية، وكذلك مبدأ تحويل الحركة الدورانية إلى ترددية، ونجد هنا أيضًا أول استخدام حقيقي لأنابيب الامتصاص في المضخات.

وفي مهرجان العالم الإسلامي الذي عقد ببريطانيا عام ١٩٧٦م، عرضت نماذج من وسائل الري التي استخدمت في بغداد في القرن الرابع للهجرة، كما عرض نموذج لمقياس النيل عند الروضة في وقت الفيضان استعمل على عهد الخليفة العباسي المتوكل، وعرض نموذج آخر لرفع الماء صنعت حسب إرشادات بديع الزمان الجزري في كتابه سالف الذكر. فقد اخترع الجزري عدة آلات وأجهزة -كما رأينا- وقد عرضت له آلة لقياس كمية الدم التي تؤخذ من المريض. أما اختراعه الذي أثار إعجاب المشاهدين ودهشتهم، فهو الساعة الدقاقة، وهي ساعة مائية تحدد الوقت وتقدم إشارات -تقوم بأدائها دُمى- لدوران دائرة البروج، وتعاقب الشمس والقمر في فلكهما السرمدي الدائم الذي لا انقضاء له ولا انتهاء. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

أ.د. الشاهد البوشيخي*

فقه واقع الأمة -٢

دراسة في الشروط والعوائق

ما هي الشروط اللازمة لمشروع فقه واقع الأمة؟ وما هي العوائق التي تقف في الطريق؟

دراسة في الشروط

١-شرط الشهود: الشهود في لسان العرب ضد الغياب، ولا يمكن لغائب عن الواقع أن يشهد بله أن يفقه. ومن ثم لابد لتحقيق الشهود والحضور من أمور:

أ- الرصد لما يجري بمختلف الحواس، شرط سلامتها عبر مراصد كافية مجهزة معدة لذلك.

ب- التوثيق الأمين الدقيق المنظم لكل ما حقه التوثيق.

جـ- التكشيف الأمين الدقيق الشامل لكل ما حقه التكشيف.

د- إعداد قواعد لمختلف المعطيات، وبنوك لما يلزم له ذلك من المعلومات.

هـ- المشاركة الفعلية فيما يجري كلما أمكن ذلك.

ذلك ومثله، من أجل إعداد المادة اللازمة للشروع في الدراسة اللازمة لتحصيل الفقه، وذلك بـ:

أ- التحليل الدقيق العميق المتنوع للمعطيات.

ب- والتعليل الراجح للظواهر في مختلف الصور والاحتمالات.

جـ- ثم التركيب المحكم للكليات من الجزئيات.

د- ثم البناء العام للمراد حسب الحاجات.

لا جرم أن هذا الشهود يحتاج إلى جهود وجهود. ولكن هل يتصور فقه لواقع الأمة وهي على ما هي عليه دون بذل لمثل تلك الجهود؟

٢-شرط الميزان: الميزان في لسان العرب آلة الوزن. ويستعار للعدل، وهو في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(الحديد:٢٥)، مُنْزَلٌ كالكتاب مع الكتاب لضبط الأمور ووزنها بالقسطاس المستقيم؛ إذ لابد لقياس كل شيء من ميزان، ولابد لقياس أي حق أنه حق، من ميزان للحق هو الميزان، وذلك الذي أنزل مع القرآن، وجَلَّتْه السنة البيان, ولم يُقبض رسول الله ﷺ إلا وقد اتضح الميزان وثبت، ولم يبق للبشرية إلا أن تدع جهلها وأهواءها لتذعن للميزان، وتزن بالميزان.

لابد من ذلك الميزان ليقوم فقه واقع الأمة بالقسط؛ لابد من ذلك الميزان لإحكام الأداة وإلا اختل الفهم، ولابد منه للتمكن من الوضع وإلا اضطرب الأمر، ولابد منه لرصد ما يجري ويتفاعل في الظرف المعيش والمجال المحيط وإلا كان إخسار في الميزان أو طغيان، وكلاهما مانع من فقه واقع الأمة في ميزان الميزان، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾(الرحمن:٧-٩).

وذلك يعني أن الطاقم البشري -على سعته- ولاسيما النخبة المرجع، والدماغ المفكر المنظر، والجهاز المحلِّل المعلِّل المركِّب، أي مختلف الأطر المشغَّلة في مشروع فقه واقع الأمة، لابد أن يكونوا ممن استقام لديهم أمر الميزان، وإلا ضاعت الأموال والأوقات والطاقات ولم تُفْقَه أمةٌ ولا واقع ولا فقه، وتلك خسارة ما أفدحها من خسارة.

٣-شرط الفرقان: الفَرْقُ في لسان العرب مداره على الفصل والتمييز، "وفرقتُ بين الشيئين: فصلت بينهما... سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر أو بفصل تدركه البصيرة. والفُرقان أبلغ من الفَرْق، لأنه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل... وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾(الأنفال:٢٩)، أيْ نورًا وتوفيقًا على قلوبكم يُفْرَقُ به بين الحق والباطل. فكان الفرقان هنا كالسكينة والروح في غيره". ذلك فرقان من الفرقان الذي أوتيه المحقق "الراغب".

ومن الفرقان الذي أوتيه صاحب المنار قوله عن الآية: "وكلمة الفرقان فيها كلمة جامعة ككلمة التقوى في مجيئها هنا مطلقة، فالتقوى هي الشجرة، والفرقان هو الثمرة، وهو صيغة مبالغة من مادة الفرق، ومعناها في أصل اللغة الفصل بين الشيئين أو الأشياء. والمراد بالفرقان هنا العلم الصحيح والحكم الحق فيها، ولذلك فسروه بالنور، وذلك أن الفصل والتفريق بين الأشياء والأمور في العلم، هو الوسيلة للخروج من حيز الإجمال إلى حيز التفصيل، وإنما العلم الصحيح هو العلم التفصيلي الذي يميز بين الأجناس، والأنواع، والأصناف، والأشخاص، وإن شئت قلت بين الكليات والجزئيات، والبسائط والمركبات، والنسب بين أجزاء المركبات، من الحسيات والمعنويات، ويبيّن كل شيء من ذلك ويعطيه حقه الذي يكون به ممتازًا من غيره... وكما يكون الفرقان في مسائل العلوم وموادها، وفي الموجودات التي استنبطت العلوم منها، يكون في الأحكام والشرائع والأديان وفي الحكم بين الناس في المظالم والحقوق وفي الحروب... فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ معناه: إن تتقوا الله في كل ما يجب أن يتقى، بمقتضى دينه وشرعه، وبمقتضى سننه في نظام خلقه، يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى ملكة من العلم والحكمة تفرقون بها بين الحق والباطل، وتفصلون بين الضار والنافع، وتميزون بين النور والظلمة، وتُزَيِّلُون بين الحجة والشبهة... وهذا النور في العلم الذي لا يصل إليه طالبه إلا بالتقوى هو الحكمة التي قال الله فيها: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾(البقرة:٢٦٩)".

هذه "الملكة" "من العلم والحكمة"، التي هي "الثمرة" لشجرة التقوى، وهي النور في آية الحديد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(الحديد:٢٨)، وهي التي بها يكون الفصل والتمييز والتزييل، والفرقان... هذه الملكة هي الفرقان الشرط، والشرط الفرقان، مَن أوتيه فقد أوتي خيرًا كثيرًا، ومن حرمه فقد حرم حرمانًا كبيرًا. ولا ينتظر من المحرومين المنطفئين المظلمين المختلطين أن يأتوا في فقه واقع الأمة بشيء. وكيف يزيل الظلمة مَن لا نور له؟ أم كيف يبصر مَن لا بصيرة له؟

إن واقع الأمة ليل سادف، وإن فقهه يحتاج إلى نور كاشف: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾(النور:٤٠).

دراسة في العوائق

١-ضعف العلمية: العلمية مصدر صناعي من العلم، ويقصد بها هنا؛ ما يجعل البحث في موضوع ما علميًّا حقًّا، أي مستوفيًا للشروط اللازمة "في البحث التي تتمثل في: صحة

المنطلقات، وصحة المقدمات، ومن ثم صحة النتائج".

ذلك بأن الدرس -أيّ درس- ينطلق من النص بمفهومه العام للنص، أي من المادة الخام التي يقوم عليها البحث، وهذه يُشترَط فيها:

أ- الصحة، وإلا انهار البناء كله، وللمحدّثين في هذا الباب ومَن حذا حذوهم قصب السبق. وفي الإعلام اليوم وهو المصدر الأول للمعلومات، فساد كبير واختلال عظيم لا يسلم من شر سلطانه إلا الراسخون في العلم.

بـ- الكفاية، وإلا تعذرت الأحكام كلها أو بعضها، وكان النقصان في النتائج بقدر النقصان في المعطيات.

ثم إن النص -أيّ نص- بالمفهوم العام للنص، لا يستخرج منه ما فيه إلا بعد الدرس، وفق منهج خاص هو الأنسب للنص. وتتنوع المناهج لتنوع النصوص والمناهج، ولكن علميتها جميعًا تقوم على:

• إخضاع المادة المحكوم عليها كلها للدرس، للسلامة من آفات التعميم.

• تحليل تلك المادة تحليلاً كافيًا يسمح بالإدراك التفصيلي للجزئيات والعناصر المكونة لها بحسب الهدف من البحث. ومعلوم أن ذلك يتطلب أدوات وأدوات، حسب طبيعة المادة ونوع الهدف، بدونها يتعذر النفوذ إلى خلايا المادة لاستخلاص المراد.

وما لم يتم ذلك فستظل المادة المبحوثة، في الظرف نفسه، بحاجة إلى بحث.

• إلقاء الأسئلة المحتملة على كل الظواهر التي كشف عنها التحليل ومحاولة الإجابة عنها، ولاسيما السؤال: لماذا كان هذا هكذا؟ وذلك لتحصيل الفقه التعليلي بعد العلم التفصيلي، والتمهيد للتركيب الابتكاري بعد التحليل المختبري.

وهذه الخطوة في الدرس، هي مناط فقه النص، وبدونها يقال للباحث: اذهب بسلام، فليس معك حتى الآن كلام.

• تجميع ما نجح في الاختبار من نتائج جزئية، وما صح من إجابات وثبت من فروض أولية، ثم تركيبها تبعًا لإشكال البحث والهدف منه في قضايا كلية، ثم بناء النسق العام منها الذي هو حل الإشكال وفصل المقال، بناء منطقيًا لا دعوى فيه بغير دليل، ولا حكم بدون حجة، ولا ذكر ولا حذف، ولا إيجاز ولا إطناب، إلا وله في حل الإشكال نصيب ومن تحقيق الهدف موجب.

هذه المعالم الكبرى للعلمية في النص والدرس، غائبة أو كالغائبة في معظم ما خبرته من دراسات في مختلف المجالات.

ولا حل شامل قبل حل "معضلة النص"، ولا حل سليم قبل حل "معضلة قراءة النص"، ولا حل حاسم قبل حل "معضلة المنهج".

والخطر كل الخطر، أن يستمر البحث أو يقدم عليه من جديد في واقع الأمة لفقهه، في غيبة مثل هذه المعالم.

والخوف كل الخوف أن لا تحدث توبة علمية نصوح فيستمر تبذير الأموال والأوقات والطاقات، وما أحوج الأمة إلى أي قدر من الأموال والأوقات والطاقات!

٢-ضعف المنهجية: منذ ست عشرة سنة خلت، رُفع ما يمكن تسميته بـ"نداء المنهج"، ولأن زمن الأمة شبه واقف وفي آذانها وَقْرًا أو شبه وَقْر، فإن النداء ما زال بحاجة إلى أن يرفع عاليًا، وذلكم هو:

"مشكلة المنهج هي مشكلة أمتنا الأولى، ولن يتم إقلاعنا العلمي ولا الحضاري، إلا بعد الاهتداء في المنهج للتي هي أقوم، وبمقدار تفقهنا في المنهج ورشدنا فيه يكون مستوى انطلاقنا كمًّا وكيفًا. ولأمر ما ألزم الله ﷻ الإنسان ممثلاً في المسلم بهذا الدعاء، سبع عشرة مرة في اليوم: ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(الفاتحة:٦).

إن حرصنا على استقامة المنهج في كل شيء، ينبغي أن يكون فوق كل حرص، وإن المجهود الذي نبذله من أجل تقويم المنهج، ينبغي أن يكون أكبر من كل مجهود، إذ العلم -كما هو معلوم- ليس هو القناطير المقنطرة من المعلومات يتم تكديسها وخزنها في أدمغة بني آدم، وإنما هو صفة تقوم بالشخص نتيجة منهج معين في التعلم والتعليم، تجعله قادرًا على علم ما لم يعلم. والعالِم ليس هو الذي يحمل في رأسه خزائن ومكتبات، ولكنه الذي يعرف كيف يوظف ما في رأسه وما في الخزائن والمكتبات، من أجل إضافة بعض الإضافات.

حقًّا إنه لابد من الاستيعاب أولا -وهو جزء من المنهج- ولكن المهم هو ما بعد ذلك من تحليل وتعليل وتركيب.

والناظر في أحوال الأمة عامة، والحال العلمية منها خاصة، يلحظ بيسر أن مسألة المنهج لمّا تعط حظها من

العنايـة والرعاية، وأن كثيرًا مـن الأموال والأوقات والطاقات تضيـع بسـبب فسـاد المنهج. وإذا جـاز الترخص في شـيء، فـإن البحـث العلمـي لا ينبغي أن يكون من ذلـك بحال، لأنه بمثابة القلب من جسد الأمة، إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسـد فسـد الجسـد كله. والأمـة دائمًا بخير مـا دام فيها بعث علمـي حقًّا، ينير ويشـق لها الطريق، ويحقـق ويؤكد لها ذاتها التاريخية، ماضيًا وحاضرًا ومسـتقبلاً. وبغير المنهج القويم لا يمكن أن يستقيم للبحث العلمي سير.

إن الحـال العلمية عندنا، تشـكو مـن عديد من الأمراض، منهـا التكديـس بـدل البنـاء، والاسـتهلاك بـدل التصديـر، والجمـع بدل البحـث، والارتجال بـدل التخطيـط، والفردية بدل الجماعية، والتسـرع بدل التأنـي، والتعميم بدل التدقيق، والفوضـى في عدد من المجـالات بدل الضبط... ومرد ذلك كله -عند التأمل- إلى فساد المنهج.

فهل ستولى هذه المسألة حظها من الاهتمام؛ فنفكر -قبل السـير- في الهدف من السـير، ومراحل السير، وكيفية السير؟ أم سنظل سائرين وكفى؟ وحسبنا أننا نسير".

أجل، مشـكلة المنهج هي مشـكلة أمتنـا الأولى، ولن يتم إقلاعنـا العلمـي ولا الحضـاري إلا بعد الاهتـداء في المنهج إلى التي هي أقوم.

ومن ذلك الاهتداء، أن لا نقدم ما حقه التأخير، ولا نؤخر ما حقه التقديم.

ومن ذلك الاهتداء، أن لا نقدم فقه الواقع على فقه الدين، لتوقف الفقه الأول على الفقه الثاني.

ومـن ذلـك الاهتـداء، أن لا نشـتغل بـدرس النـص قبـل الإعداد العلمي للنص.

ومـن ذلك الاهتـداء، أن لا نقدم الدراسـة التاريخية على الدراسة الوصفية.

ومـن ذلك الاهتداء، أن لا نشـتغل بالأحكام عن الحِكم، وبالقواعد عن المقاصد، وبالسـطوح عن الأعماق، وبالنوافل عـن الفرائض... إلى غير ذلك مما يدرأ كثيرًا من المفسـدات لسـلم الأولويات، ويصحح كثيـرًا من الموازنات بين الثوابت والمتغيرات.

ولا سبيل إلى فقه واقع الأمة اليوم أو غدًا، إلا بعد الاهتداء في المنهج للتي هي أقوم.

وإذا كانـت العلميـة تحـل إشـكال صحـة النتائـج لصحة المقدمات، فإن المنهجية تحل إشـكال ضبط المراحل لضبط الأولويات، ومن أصول المنهج الصبر وانتظار الفرج، وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل.

٣-غياب التكاملية: التكاملية مصدر صناعـي كالعلمية والمنهجيـة. والمقصـود بهـا أن يكـون وضـع الباحثين وهم يبحثـون، والمشـتغلين وهـم يشـتغلون، مؤسَّسًـا علـى أن جهودهـم -أفقيًّا وعموديًّا- يكمل بعضهـا بعضًا، أفرادًا كانوا أم مجموعـات، ومراكـز كانوا أم منظمـات، ومجامع كانوا أم جامعـات... وهذه التي بحضورها يحضر خير كثير، وبغيابها ينفتح باب للتبذير كبير.

فإن لم يكن التأسيس السابق فليكن التنسيق اللاحق، وإن لم يكن التنسيق في كل فليكن التنسيق في بعض، وإن لم يكن التنسـيق الدائـم فليكن التنسـيق المؤقت... لكـن أن لا يكون تنسـيق قـط، وتقع الحوافـر على الحوافـر، وتُكَـرِّر ما فعلت الأوائـلُ الأواخرُ، ويشـتغل بالموضوع الواحد عشـرات، ولا يشـتغل أي واحد بعشرات المواضيع أو مئات... فذلك منكر فـي الدين والعلم والمنهج كُبَّـار، يجب على الواقع فيه التوبة منه، وعلى رائيه التغيير بحسب الاستطاعة له.

نعم، إن غياب "العلمية" أو ضعفها، عائق من أكبر العوائق، وغيـاب "المنهجية" أو ضعفهـا كذلك عائق من أكبر العوائق، ولكـن غيـاب التكاملية أو ضعفهـا ليس فقط عائقًـا من أكبر العوائق، بل هو رأس العوائق وأمّ العوائق.

ذلك بأن التنسـيق يمثل ضربًا من "الشـورى" في الطريق، فينتج عنه آليًّا تصحيح الأعلم للعالم، وترشـيد الأكثر منهجية للأقل، بحكم الرفقة العادية في الطريق، والتلاقي المتكرر في التنسيق. "والجهد إذا أحسن صرفه -وفق خطة علمية منهجية متكاملة- كفيل أن يثمر في نابتة الأمة اليوم ثمارًا سـتكون في غاية النضج، ثمارًا تخرجها من الحيرة والاضطراب المنهجي إلى الاهتداء للتي هي أقوم، ومن الكلام عن العلم إلى الكلام بعلم، ومن السير الفرداني -فرديًّا كان أو مؤسسيًّا- إلى السير الجماعي المنسـق المتكامل، ومـن المواجهة الانفعالية الآنية -التـي لا ينقصها حسـن الظن- إلى التوجهات الإسـتراتيجية الشـاملة التـي لا يشـوبها -وإن بعـدت الشـقة- سـوء الظن. وعلى الناشـئة من الباحثين بعـد الله تعالى المعوَّل: أن يؤثروا الآجلة على العاجلة، ويسـلكوا الطريق على وعورته صابرين محتسبين".

خاتمة في المقترحات

وأحسب أن أهمها خدْمة لما نحن فيه، سبعة:

١- إنشاء "بنك الأمة" للمعلومات، يخزّن فيه كل ما يتعلق بالأمة كُلاً أو بعضًا، في الداخل والخارج، ذاتًا وظرفًا ومجالاً.

٢- إنشاء "مركز الأمة" للتوثيق، يخصص لجمع الوثائق عن الأمة وتصنيفها وتيسيرها للباحثين، ذاتًا وظرفًا ومجالاً.

٣- إنشاء "مكتب الأمة" للتنسيق، يخصص لربط العلاقات بين الباحثين والمهتمين بواقع الأمة أفرادًا ومؤسسات، وتنسيق جهودهم، ودفعهم إلى التكامل فيما بينهم في خططهم ومشاريعهم وإنجازاتهم.

٤- إنشاء "مجمع الأمة" الفقهي، يخصص للنظر في "فقه واقع الأمة"، وما يلزم للتمكن منه والانتفاع به. ويكوّن من أئمة الأمة في فقه الدين وفقه الواقع وفقه التنزيل.

٥- إنشاء مجلة "لسان الأمة"، تخصص للبحوث العلمية المنهجية المتخصصة في فقه واقع الأمة.

٦- إنشاء "دار الأمة"، تخصص لنشر البحوث القيمة المتعلقة بفقه واقع الأمة.

٧- إنشاء "جائزة الأمة"، تخصص لأكثر الناس خدمة للأمة، وأكثر البحوث نفعًا في فقه واقع الأمة. ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

المراجع

(١) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط١، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، دار القلم، دمشق، والدار السامية، بيروت.

(٢) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ط١، ١٩٩٩م، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) نحو منهج لدراسة مفاهيم الألفاظ القرآنية، بحث قدم في ندوة "القرآن المجيد وخطابه العالمي"، كلية الآداب بأكادير بالمغرب، بتعاون مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي، في تاريخ ١٤-١٤١٨/١/١٩هـ، الموافق ٢١-١٩٩٧/٥/٢٦م.

(٤) البحث العلمي في التراث ومعضلة النص، عرض ألقي في ندوة "تحقيق التراث المغربي الأندلسي: حصيلة وآفاق"، المنظمة بكلية الآداب بوجدة تكريمًا للأستاذ محمد بن شريفة، في تاريخ ٩-١٠-١١ نوفمبر ١٩٩٥.

(٥) نظرات في المصطلح والمنهج للشاهد البوشيخي، ط١، ٢٠٠٢، فاس.

(٦) مشكلة المنهج في دراسة مصطلح النقد العربي القديم، ضمن ندوة "المصطلح النقدي وعلاقته بمختلف العلوم".

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

بشائر عالم جديد

نَقَفَ الوليدُ قِشر الوجود،
وجناحَيه على الدُّنيا نشر،
ثُمَّ علاَ وارتفع...
مصدِّقًا بشرَى نبيٍّ،
وصالحٍ ووليّ..

* * *

شعر

ليلى السبيعي*

جمال الفكر

جمال الفكر لدينا
يسمو بالروح حينا،
ونقاء القلب في طهر
من نور الله فينا...
نحن اللذينا،
آمنا برب العالمينا،
والتقينا على درب الهدى
ننشر الخير والتقى،
ننشر صلاحًا وبرّا،
وبشرًا ورياحينا،
من نور الله فينا...
يشرق القلب يقينا،
فتسمو الحياة،
ويحلو الثبات،
على هدى
خير المرسلين...
نحن الهدى،
خط مساره فينا...

وقلنا للدنيا الدنية،
بمفاتنها وهواها:
نحن جيل يوسف
شباب استعصم
بالصلاح عرفنا،
غرفنا من التقوى
حتى ما عاد للشيطان
نصيب فينا...
نملأ الأرض إيمانًا،
نملؤها يقينًا،
نحب في الله فالحب
شيمة كل المسلمينا...
لا نرتضي منكرًا،
ولا نحمل ضغينًا،
نكد ونعمل في جهد واجتهاد،
ونحن موقنينا
أن الله هو خير الرازقينا...

(*) كاتبة وأديبة مغربية.

محمد هاشم البشير*

التلسكوبات
عيون على السماء

إن عـام ٢٠٠٩م، سـنة فلكية تعيد لنا ذكرى ٤٠٠ سـنة منـذ أن وجه "جاليليو" منظاره إلـى السـماء، والتـي أحدثت ثورة علمية فـي الفلك لا نزال نعيـش آثارها حتى يومنا هـذا. فقد عرف الإنسـان منذ القدم -بحبـه لمعرفة ما حوله رغم اختلاف الدوافع في ذلك- دافع المعرفة وتسخيرها لخدمة البشرية، أو دوافع حب جمال الأجرام السماوية في قبة السماء.

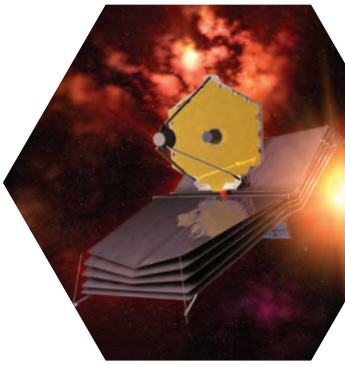

ولكن "جاليليو" أحد مؤسسـي علم الفلك الحديث والذي أهدى إلى البشـرية ما يتسـع للخيال، كان أسير الإقامة الجبرية في منزله لمعارضته أفكار الكنيسة وقتذاك؛ في أن الشمس هي مركز الكون وليـس الأرض، وأن الأرض تـدور حـول الشـمس، وهذا قبـل أن يصاب -بعد ذلـك- بالعمى رغم أنه أول من شـاهد الجبال والفوهات على سـطح القمر، وأول من اكتشـف أربعة من أقمار المشـتري وعددًا من النجوم التي لا ترى بالعين المجردة. وقد قال "جاليليو" واصفًا حالته تلك: "إن هذا الكون وهذه الأرض وهذه السماء التي كبرت أبعادها مئات ألوف المرات، أكثر مما اعتقده حكماء العصور السـابقة، بفضل اكتشـافاتي العجيبة وبراهيني الواضحة، قد بات مقصورًا -بالنسـبة لي- على الفضاء الصغير الذي تملؤه حواسي الجسيمة".

ولد جاليليو في "بيزا" الإيطالية عام ١٥٦٤م، قام خلال حياته بأعمال علميه قيمة حتى وفاته عام ١٦٨٢م.

ومن هذه الانطلاقة بدأ تسـابق العلماء في اكتشـاف الطرق التي يسـتطيعون من خلالها سبر أغوار الكـون، فتعـددت أسـاليب الرصد وطرق استكشـاف الفضـاء؛ فهناك المراصـد المرئيـة والراديوية، والمراصـد بالأشـعة المتعددة في الطيف الكهرومغناطيسـي، بالإضافة إلـى مراصد فضائية تنطلق في الفضاء الخارجي لاستكشاف الأجرام الدقيقة في الفضاء الفسيح.

التلسكوبات الفلكية

جـاءت الحاجـة إلى التلسـكوبات، لتلبي رغبة الإنسـان في تطلعه للكمال واكتشـاف أسـرار الكون. فمن المعلوم أنه لا يمكن لقزحية العين أن تتسع أكثر من ٨ مم، وبالتالي لا يستطيع الإنسان أن يرى الأجرام السـماوية البعيدة أو يرى بعضها بضوء خافت، لذلك تتطلب التلسـكوبات الفلكية أن تكون ذات قدرة عالية لتجميع الضوء، ومن ثم أن تكون بأقطار كبيرة. فالتلسكوب الذي قطر مرآته ٧٨ مم، يسـتطيع أن يجمع قدرًا من الضوء يزيد ١٠٠ مرة عن القدر الذي تسـتطيع العين البشـرية أن تجمعه. وبالتالي يستطيع هذا التلسكوب أن يقوم برصد النجوم التي يقل ضوؤها ١٠٠ مرة عن ضوء أضعف النجـوم والتـي يمكـن أن تراها العين البشـرية. ويبلغ قطر التلسـكوب الموجود فـي "مونت بالومار" بولاية كاليفورنيا الأمريكية خمسـة أمتار، ويسـتطيع هذا التلسـكوب تجميع ما يزيد على عدة ملايين من المرات على ما تستطيع العين البشرية تجميعه.

وقد تم تصنيف التلسكوبات إلى نوعين وفقًا لطريقة تجميعها للضوء الصادر من الأجرام السماوية؛ فتم تصنيفها إلى التلسكوب العاكس وهو النوع الأكثر شيوعًا الآن، والتلسكوب الانكساري صاحب التكلفة العالية، كما هناك تلسكوبات أرضية وأخرى فضائية.

ومن أشهر التلسكوبات الفضائية، تلسكوب "هابل" الذي ينسب إلى العالم الفلكي "أدوين هابل". أطلق في أبريل ١٩٩٠م بواسطة المكوك الفضائي دسكفري الأمريكي، ويبلغ طوله ١٥,٩م، عرض قطر مرآته ٤,٢م، ووزنه ١١,١١٠كغ، والعمر الافتراضي له ٢٠ عامًا، وقد أجري له قريبًا ترميم بواسطة المكوك الأميركي أتلانتيس، ويعمل بالطاقة الشمسية بطاقة مقدارها ٢٤٠٠واط، يُتم دورة كاملة حول الأرض في ٩٧ دقيقة، وسرعته ٢٨٠٠٠كم في الساعة، ويدور على ارتفاع ٥٦٩كم فوق سطح الأرض، ينتج من ١٠ إلى ١٥ غيغا بايت من الصور والبيانات العلمية كل يوم، وقد التقط أكثر من ٧٠٠ ألف صورة خلابة لسُحُب ضخمة من الغاز المضيء ومجموعة متنوعة من المجرات والأجسام غير المألوفة، ولولادة النجوم وموتها. وقد كان له أثر كبير على أفكارنا ونظرتنا إلى الكون، خاصة بعد اكتشاف "هابل" -بعد مراقبته للمجرات قرابة نصف قرن- تم اكتشاف أن المجرات تتباعد عن بعضها البعض، وهذا ما يعني أن الكون في تمدد. وإثباتُ تمدد الكون ليس بالأمر السهل، ولكن مع الأيام تبنى أكثر العلماء هذا الاكتشاف، وأصبح الآن جزءًا من الحقائق العلمية. وهذا الكشف أدى إلى تبين نظرية الانفجار العظيم، التي يعكف علماء العصر الحديث على دراستها. وكل ذلك أدى إلى تغير النظرة إلى الكون من كون ساكن أبدي إلى كون بدأ خلقه من زمن بعيد. وهذا ما أخبرنا به الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾(الذاريات:٤٧).

وهناك تلسكوبات أخرى أطلقتها كل من روسيا وأوروبا واليابان، كما سيتم مستقبلاً بناء تلسكوب "ماجِلاّن" العملاق، وهو تلسكوب أرضي سوف يتم الانتهاء من إنشائه في عام ٢٠١٨م. وهو يتكون من سبع قطاعات رئيسية بقطر ٨,٤م (٢٧,٦ق) بدقة تصوير مرآة رئيسية قطرها ٢٤,٥م (٨٠,٤ق)، وإجمالي مساحة سطحها ٢١,٤م (٧٠,٢ ق). ومن المتوقع أن تصل قدرة التلسكوب الجديد، أربع أضعاف التلسكوبات القائمة حاليًا. وفي وكالة الفضاء ناسا حاليًا، يعمل على إعداد وتجهيز منظار "جيمس ويب" الفضائي العملاق لإطلاقه في ٢٠١٣م، ليجري متابعة واختبارات للكون المحيط بنا من وراء القمر.

ومع تقدم العلم، راح يحلم كل فلكي بتكوين تلسكوب بقطر ١٠٠م، وبالتالي يكون من الممكن تصوير كواكب شبيهة بالأرض خارج المجموعة الشمسية تبعد ٧٥ سنة ضوئية أو أكثر، ودراسة غلافها الجوي للكشف عن إمكانية وجود الحياة عليها. وهذا التلسكوب سيساعد في اكتشاف نجوم تبعد أكثر من ١٢ بليون سنة ضوئية، ومراقبة ولادة مجرات تبعد حوالي ١٠ بلايين سنة ضوئية. وكم ستفتح للبشرية من أبواب للمعرفة عندما يتحقق هذا الحلم.

لأسلافنا دور

شهد العصر العباسي نموًّا في الحضارة الإسلامية وبالأخص تطور علم الفلك. فإبان هذا العصر، تم إنشاء عدد من المراصد الأرضية في دمشق ومصر وسمرقند، كما طور علماء المسلمين أداة "الأسطرلاب"؛ وهي آلة دقيقة تصور عليها حركة النجوم في السماء حول القطب السماوي. وتستخدم هذه الآلة لحل مشكلات فلكية عديدة، كما تستخدم في الملاحة وفي مجالات المساحة. وتستخدم -إضافة إلى ذلك- في تحديد الوقت بدقة، ليلاً ونهارًا. وقد اهتم بها المسلمون اهتمامًا كبيرًا، واستخدموها في تحديد مواقيت الصلاة، كما استخدموها في تحديد مواعيد فصول السنة.

ووجه الأسطرلاب يحتوي على خريطة القبة السماوية، كما يحتوي على أداة تشير إلى الجزء المنظور من القبة السماوية في وقت معين. وقد رسمت القبة المنظورة على وجه الأسطرلاب المسطح بطريقة حسابية دقيقة، وهي الطريقة ذاتها التي استخدمت في رسم خريطة العالم (الكرة الأرضية) على مساحة مسطحة. وهذه الطريقة تسمح بتحول الدوائر من أشكال كُروية إلى أشكال مسطحة دون أي تغيير للقيمة الحقيقية للزاوية، التي ترسم بين خطين على الشكل الكروي. وقد اشتهر بصناعة الأسطرلابات، علماء فلكيون كثيرون، منهم: حامد بن محمد الأصفهاني، وأحمد بن حسين بن باسو، وأبو حامد أحمد بن محمد الصاغاني. وكل ما تم ذكره يدل على أن علم الفلك، تمتع بمكانة مرموقة بين العلوم الأخرى، وحاز اهتمام الإنسان -وما يزال- في مختلف العصور والأزمان بشكل كبير. ■

(*) رئيس جمعية الفيزياء بجامعة وادي النيل / السودان.

د. محمد باباعمي*

حفل تكريم الأستاذ الدكتور محمد عمارة

مصر.. ومصير الأمة المرتقب

من جمال حمدان إلى فتح الله كولن

هما عَقْدان من الزمان، ما بين وفاة الأوَّل شهيدًا، وزيارة الثاني شاهدًا؛ والحقُّ أن "حمدان" لم يمت، وإنما غادر المكان بجسده ليس إلا، والتحقيق أن "فتح الله" لم يطأ أرض مصر برجليه، لكن روحه اليومَ تُرفرف على سفوح النيل، وإنَّا لنراها رأيَ العين ونتملَّى جمالها وجلالها عينَ اليقين.

ولقد كتب "جمال حمدان" في "شخصية مصر" وعن "شخصية مصر"،[1] لكأنَّه يخطُّ كلماته الآن والساعةَ، لا لـ"مصرَ البلد" وحده، بل لـ"مصرَ" عنوانًا للأمَّة يعقبه المتنُ، ومبتدءًا يلحقه الخبر، فقال لا خفر الله له ذمَّة: "إن ما تحتاجه مصرُ أساسًا إنما هو ثورةٌ نفسيةٌ، بمعنى ثورة على نفسها أوَّلاً، وعلى نفسيتها ثانيًا، أي تغييرٌ جذريٌّ في العقلية والمُثل وأيديولوجية الحياة، قبل أيِّ تغيير حقيقي في حياتها وكيانها ومصيرها... ثورةٌ في الشخصية المصرية، وعلى الشخصية المصرية... ذلك هو الشرط المسبق لتغيير شخصية مصر وكيان مصر ومستقبل مصر".

ثم إن "فتح الله كولن" وهو يعالج "القضية الكبرى لأمَّتنا"[2] معالجةَ الطبيب الماهر الفطن، يحرص على إظهار

نوزاد صواش – د. محمد باباعمي

عُسر المهمَّة وصعوبتها، ثم هو يؤكد على وجوب الإيمان واليقين في تحقيق نُصرتها، ويقول لا أضاع الله له أجرًا: "وليس المقصود من هذا القول أنَّنا عاجزون عن انتزاع اللوثيات اللاصقة بأرواحنا في القرون الأخيرة، بل الإفادةَ بأن بلوغ برِّ الأمان عسيرٌ غايةَ العسر ما لم نتخلَّص كأمَّة من أسباب ودواعي انهيارنا وانحلالنا الحقيقية، مثل: الحرص، والكسَل، وطلب الشهرة، وشهوة السلطة، والأنانية، والميل إلى الدنيا... وغيرِها من الأحاسيس والمشاعر، وما لم نتوجَّه إلى الحق بما يُعدُّ جوهر الإسلام وحقيقته كالاستغناء، والجسارة، ونكران الذات، والاهتمام بِهَمّ الآخر، والروحانية، والربانية... وما لم تتمَّ تصفيتنا بمشاعر الحق ثم نصبَّ في قالبه... لكنّ العسر الشديد لا يعني المحال".

فما هو الشرط وما هو السبب لتحقيق ما وجَّه إليه حمدان، وما بشَّر به فتح الله؟ الشرط الأساسُ والسبب الرئيس، هو أن "لا تخلوَ الساحة مِن شجعان، مالكين لإرادة تجديدية تحتضن العصر، مع الحفاظ على الجوهر واللبّ". وما هي الصبغة الأمثل، والصوت الأفصح، القمينُ بهذا التغيير المرتقب، والفجر المنتظر؟

لا ريب أن هذا التجدد وذلكم التغيير، لابد أن يكون "ذا أبعاد قرآنية، وسجايا فطرية"، لا يكفر بالأولى مهما فُتِن، ولا يتنكَّر للثانية مهما امتُحن.

بهذه المعاني الصدَّاحة، ولأجل هذا الغد الوضَّاء، حطَّت "حراءُ المعنى" رحالَها لأيام معدودات، على أرض مصر، تنقَّلت خلالها ما بين القاهرة والإسكندرية، وزارت محافظة "بني سويف" على إثرهما، ذلك أن مفهوم "المنطقة النائية المعزولة" قد نُسخ من قاموس "الخدمة" منذ أمد بعيد... إذ كلُّ شرٍّ بعيدٌ ولابد... وكلُّ خير قريبٌ ولا غَرو...

ندوة "أجيال الأمل والفجر الجديد: محاورة صادقة مع الأستاذ فتح الله كولن"

حفل تكريم الأستاذ الدكتور محمد عمارة[٣]

ففي القاهرة، عند الحرم المبارك لمدرسة "صلاح الدين" الرائدة،[٤] كان لـ"مجلة حراء" عرسٌ بديع، ويومٌ سعيد؛ كرَّمت فيه رجلاً جبلاً، وعالِما شهمًا، وعنوانًا كبيرًا على صفحات الأمَّة الناصعة... رجلاً جمع إلى العلم الرصين العقلَ الحصيف، وأضاف إلى الفهم السديد الخلقَ الحميد، ثم إنه شدَّ القلوب إليه قبل العقول، ولقد كان -واللهِ- للعقول مُرشدًا نصوحًا، وللحقِّ داعية صدوحًا.[٥]

إنه الأستاذ المفكر الدكتور محمد عمارة، المتفرِّغ للتفكير والتأليف لعدة سنوات، الناشر لما يقرب من ثلاثمائة عنوانٍ في مختلف الفنون... كلُّ عنوان -حسب تعبيره- "وليدٌ جديد"، وكلُّ كتاب "مولودٌ سعيد".

أمَّا مناسبة التكريم، فهي صدور كتاب له مناسبٍ للسياق والظرف، متناغمٍ مع الواقع والمأمول، يكفي أن يكون عنوانه: "روح الحضارة الإسلامية"، ثم يكفي أن يكون منشورًا بعناية، مقالاً مقالاً في مجلة حراء لسنوات متوالية متتالية، وها هو اليوم يكتمل مبنى ومعنى، ويهلُّ على الناس مربَّعًا[٦] ومَغنى.[٧]

وللشباب نصيبٌ غيرُ منقوص[٨]

على جانب الحدث الكبير وفي ذات القاعة البديعة قُبيل ساعاتٍ، كان لطلبة الأزهر الشريف وجامعاتِ مصر العديدة، من شتى بلاد العالم الإسلامي الفسيح... كان لهم لقاءٌ حميم وحوار صريم؛[٩] أداره الدكتور محمد باباعمي بتنشيط من الأستاذ نوزاد صواش، وقد اختير له عنوانًا: "أجيال الأمل، والفجر الجديد: محاورة صادقة مع الأستاذ فتح الله كولن".

كان فحوى هذه المداخلة المفتوحة أن "صلاح الدين" الرمز، و"صلاح الدين" الجيل، حاورا الأستاذ فتح الله كولن بلا

حدود ولا قيود، وسألاه عن "التفاؤل والتشاؤم"، وعن "المرحلة والـدَّوْر"، وعـن "المنطلق والغاية"... سـألاه عن كل ما يعني الأمَّة أوان فجرها الصادق، وحين نهضتها المنشودة... فما كان من "فتح الله" إلا أن أجاب ببيان، وكشف بتبيان،[١٠] ومما قاله:

"إن تقـدُّم الأمَّـة إلـى الأمـام أو تراجعهـا إلـى الـوراء وانحطاطهـا، مرتبـطٌ بالتربية والروح والشـعور الذي تتشـرَّبه أجيالها الشابة. فطريق التقدُّم مفتوح دومًا أمام الأمم التي تعِدُّ شـبابها إعدادًا جيدًا. أمَّا الأمم التي تهمل شبابها، فلا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة إلى الأمام".

فهل يا شباب محمد ﷺ، ويا أمل الغد السعيد... هل أنت مستعدٌّ متحفِّز متوفِّز؟! ذاك ما يثبته مستقبل الأيام أو ينفيه، ولا نخاله بحول الله إلا مُثبتًا.

فتح مدرسة "صلاح الدين" في "بني سويف"

جـاء الـدور الحضـاري العبقـري الذي يرتسـم علامـةً فارقةً ومباركـةً مُسـجَّلة علـى جبيـن "الخدمـة"، فـي أكثر مـن مائة وسـتين دولـة من دول الشـمال والجنوب... إنـه فتحُ حصنٍ للتربيـة جديد، وإعـلان معقل للخير حديد.[١١] هي "مدرسـة صـلاح الدين" الثانية في محافظة "بني سـويف"، جاءت تتمَّة لـ"صـلاح الدين" الأولى فـي القاهرة... ولقـد تناقلت الوفود بُشـرى اقتـراب بزوغ أخوات لهـنَّ: في سـوهاج، وماريوتي، والإسكندرية... وغيرها.

ومـرَّة أخرى حضـر الحفلَ البهيج، مفتـي الديار المصرية العلاَّمـة علـي جمعـة، وألقـى كلمة مما جـاء فيهـا: "إن هذه المدرسـة بؤرة جديدة لنورٍ، سـيمتدُّ بحول الله نحو الآفاق... فهي اليوم واحدةٌ، ثم اثنتان... وهي بعد أمد قريب -بعون من الله- سـتكون عشـرةً، بل عشـرين... وما ذلك على الله بعزيز، ولا على همَّة الرجال بمستحيل".

ولم تغب عن الحفل الجهات الرسمية الوطنية والمحلية، وبخاصـة ممثلو وزارة التربيـة، والإدارات المحلية المشـرفة علـى التربيـة والتعليم في مصر بنوعيه الخـاص والعام؛ كلُّهم كان لسـانًا ذاكرًا، وقلبًا شـاكرًا، وأملاً مشـرقًا، ودعـاء ملحًّا: أن يحفـظ الله مصر وسـائر بـلاد المسـلمين، وأن يمكِّن لهذه التجربة المحيِية من الانتشار في سائر المحافظات، بخاصَّة ما كان منها في الجنوب.

القضية الكبرى لأمتنا: ندوة في مكتبة الإسكندرية

في المدخل الرئيس لمكتبة الإسكندرية نقرأ مكتوبًا على لافتة عريضة: "ندوات حراء، الإسكندرية"، ثم يجذبنا عنوان الندوة بخطٍّ عريض: "القضية الكبرى لأمَّتنا: من الإنسـان الأفق إلى المجتمع المثالي". ولقد كان الحضور كثيفًا، والاهتمام بليغًا، والحـدث مهيبًـا، اسـتغرقت فعالياتُه أزيد من ثلاث سـاعات بإدارة وفية من قبل الأسـتاذ الدكتور صلاح سـليمان مستشار مديـر المكتبة، الذي أرشـد ونبـه وقال فيما قـال: "لقد قرأت جميـع مـا وصل بيـن يدي من كتب الأسـتاذ فتـح الله كولن، فألفيتهـا علامة في الحضارة، وأساسًـا متينًـا للغد المرتقب". ثم أشار إلى أن "مكتبة الإسكندرية تأخذ على عاتقها الجانب الإصلاحـي فـي كل مناحي الحيـاة، من العلـم والمعرفة إلى الثقافـة المسـؤولة وبنـاء الإنسـان، مـن خلال عـدد كبير من البرامج والمشروعات، وبالتركيز بشكل خاصٍّ على الشباب". وفـي هذا الإطار تأتي هذه الندوة، وبهـذا النفس تُعقد الآمال في تجربة "فتح الله كولن" الرائدة.

ثـم إن الدكتـور محمـد عبـد الله الشـرقاوي رئيس قسـم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، هزَّ عتبات المنبر في القاعة الكبرى من المكتبة، وفضَّل أن يضع التحليل الفلسـفيَّ المدرسـيَّ جانبًا، ليلوذ بالتعبيـر الوجداني البلَّوري

مصطفى أوزجان

د. محمد عبد الله الشرقاوي

الناصع، شاهدًا صادقًا، وناصحًا أمينًا، ومرشدًا خريتًا... فأشار إلى أن مشروع "فتح الله" استطاع أن يُنْزل المُثل الإسلامية إلى أرض الواقع، وهو يتَّسم بأعلى معايير الجودة والالتزام والتنظيم، ثم عرَّج إلى مدلول "التلطُّف" في فكر الأستاذ، وما له من آثار حميدة على الإيقاع وضبط المسير. من ذلك أنه لا يستعدي الآخَر ولا يستفزّه، فهو نموذجٌ منطلقُه الفهم الصواب للإسلام، ومصبُّه الإدراكُ البصير لحقيقة الإنسان.

ثم كان الدور للأستاذ مصطفى أوزجان المستشار لمجلة حراء؛ الذي عالج بذهنية الطبيب الحاذق، وبروح المجاهد المجتهد الواصلِ لما أمر الله به أن يوصل، والقاطعِ لما أمر الله به أن يُقطع؛ ليشدَّ بحبلٍ وثيق بين القلب والعقل، وليربط بميثاق غليظ بين العلم والعمل، وليحذِّر ويُنذر من أن النهضات والحضارات لا تبدأ من السياسة ولا من الاقتصاد... لكنها -كما هو مأثور عن رسول الله ﷺ- تنطلق من "الأغوار السحيقة للقلوب"، وتضمن النفاذ باعتماد "تأشيرة الوجدان" سفيرًا ورسولاً... ثم إنه ﷺ تناول الإسلام كلاً متكاملاً غير ممزَّق ولا مشتَّت، ولهذا كان النصرُ حليفَه في أمدٍ قصير، وبلغ الدينُ الحنيف على يديه الشريفتين آفاقًا لم يبلغها أيُّ دين آخر، ولم تحلم بها فلسفةٌ ولا أيديولوجية من قبلُ، ولن تحلم بها من بعد.

ولقد ابتليت البشرية لقرون ثلاثة متوالية -كما أشار الأستاذ مصطفى- بنزعات ونزوات، مثل الأنانية والفردية والمادية والعنصرية والنفعية والوضعية... كلُّها حَلَبت للعالَم سمًّا زعافًا، وورَّثت البشرية حربين عالميتين قُتل فيهما مئات الملايين، وشرِّد ما لا عدَّ له ولا حصر. ولذلك، تقف الإنسانية اليوم على مفترق الطرق، وتبحث عن المنقذ النصوح والمرشد الصدوح، وسوف لن تجده إلا في الإسلام دينًا وعقيدةً، وعبادة وخُلقًا، ومعاملاتٍ وحركيةً... أي في الدين حين يكون كُلاًّ، لا حين يكون كَلاًّ.

وذكر الدكتور محمد باباعمي مديرُ معهد المناهج بالجزائر وباحثٌ بأكاديمية البحوث في تركيا؛ وهو يعرِض قصَّته في تأليف كتابين اثنين عن الأستاذ "فتح الله" وعن نموذج "الخدمة": "البراديم كولن"، و"أرباب المستوى" من نشر دار النيل، ذكر أن لـ"مصر" في جغرافية الأمَّة مقامًا سامقًا ومكانًا رائقًا، فهي بمثابة القلب من الجسد، فإن تسارع إيقاع نبضها نشطت الأمَّة من عقالها، وإن تباطأ أو خفُت -لا قدَّر الله- دبَّ على أطراف الأمَّة قاطبةً عفريتُ الكسل والخمول والتخلف... ثم عرض المحاضِر سؤالَ الأزمة، الذي بسببه كانت "الخدمة" نموذجًا بديلاً، وهو:

"لماذا فكرُنا لا يتحوَّل إلى واقع، ولماذا واقعنا لا يضرب بسبب في فكرنا؟ ثم كيف نفسِّر كون فكر "فتح الله" يغمر المجتمع ويصير حقيقة وعيانًا؟ وبماذا نعلل ارتباط مؤسّسات ومشاريع "الخدمة" بالفكر، وانطلاقها من أرضية الإيمان والإتقان والإحسان، تحت مظلَّة العقل والقلب والشعور والفيوضات والوجدان؟".

فكانت محاولة الجواب عن سؤال الأزمة مِن قبل "فتح الله" ومشروع "الخدمة"، بمثابة تحوُّلٍ في "البراديم/النموذج"، ثم مع الوقت تشكَّلت على صورة "النموذج البديل" وهو بديل عن "النموذج المهيمن" بمختلف أشكاله وألوانه... ولا يعني هذا بتاتًا أنه نموذج ناقم أو منتقم من التجارب الأخرى، وإنما هو نموذجٌ يعترف أنه مرحلة في حلقة، ولبنة في صرح، وذرة في شمس... و"الخدمة" بهذا، تؤمن بالتراكم لا بالإقصاء؛ فهذه أكبر خاصية من خصائصها الفكرية والحركية، وأدقُّ صورة من صور "نماذجها الإدراكية التفسيرية الكامنة" بتعبير ابن مصر

"القضية الكبرى لأمتنا: من الإنسان الأفق إلى المجتمع المثالي"

د. صلاح سليمان

الوفي المرحوم عبد الوهاب المسيري، عليه شآبيب الرحمة.

وجاء مدير "مجلة حراء"، الأستاذ نوزاد صواش ليحمل الناس في رحلة بالصور الموحية، وبالتعليق اللطيف الخفيف، إلى مدارس "الخدمة" في تركيا وفي شتى بلاد العالم. فكان عرضُه مصادقة لما قيل، وتصديقًا لما قرِّر، وحملاً للناس على التفكير الجدّي في اقتحام العقبة بلا خوف ولا تردُّد، ودفعِهم إلى الثقة بالنفس وبمقدَّرات هذه الأمَّة بلا مواربة ولا مخاتلة... ومما قاله: "إن مدارس الخدمة تصوغ المثالَ، لا لتستأثر به لنفسها، ولكن لتعرضه على مصر وعلى باقي بلاد العالم والمسلمين، لينظروا فيه ويقوّموه ويطوّروه... فهي بذلك ستنفق مما رزقها الله من خبرة ومعرفة بسخاء دون حدود... وهذا بعينه معنى بليغٌ من معاني الخدمة، وقانونٌ ثابت ضمن القوانين والمقاصد التي سطرها "فتح الله" بفكره ومهجته".

وبعد الحوار والأسئلة التي بلغت المئات، دليلاً على الاهتمام الحصيف، وتنبيهًا إلى المقام المنيف، وعنوانًا على الهمّ الملتهب بين ثنايا القلوب الضارعة، المتعلّقة بمصر بلدًا وشعبًا، وبمصير هذه الأمَّة حضارة ودينًا... بعد هذا الحوار تبادل الطرفان الهدايا السخية وكلمات الشكر الندية.

ثم ما لبث سربٌ من طيور القُمريّ[١٢] يصفّق بأجنة سوداء وبنّية وبعضها جوزيٌّ مذهَّب، ويعلن للعالمين بُشرى تعلُّق قلبٍ بقلب، وفؤادٍ بفؤاد، وروحٍ بروح؛ وأعجب لفردٍ من السرب مكث مني غير بعيد، وهو يترنَّم بصوت عذب لا أزال أجد رجعه في أذني... ويتغنى بآيةٍ من آي الكريم الحكيم تاليًا: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۞ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(الأنفال:٦٢-٦٣). ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

الهوامش

(١) جمال حمدان: هو أحد أبرز أعلام البحوث الجغرافية والحضارية في العالم، ولد سنة ١٩٢٨، وتوفي سنة ١٩٩٣، وترك حوالي ٢٩ كتابًا، و٧٩ بحثًا ومقالاً، وهو رمز من رموز الفكر في مصر المعاصرة. أما كتابه "شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان"، فهو أشهر كتاب عن تاريخ مصر وعن علاقة الإنسان بالحضارة؛ نشر عدة مرات في أربع مجلدات، وهو يتجاوز العرض المعلوماتي الوصفي التقليدي إلى التحليل الحضاري المستقبلي النماذيجي.

(٢) في كتاب "ونحن نقيم صرح الروح" نطالع مقالاً للأستاذ فتح الله كولن بعنوان "القضية الكبرى لشعبنا"، منه استقينا عنوان الندوة التي أقيمت في مكتبة الإسكندرية.

(٣) حفل الحفل ثلة من العلماء ورجال السياسة ووجوه البلد؛ على رأسهم مفتي الديار المصرية الأستاذ الدكتور علي جمعة، وكذا السادة الأفاضل الأستاذ مصطفى أوزجان، والدكتور عبد الحميد مدكور... وغيرهم كثير يضيق المقام من حصرهم اسمًا اسمًا.

(٤) مدرسة صلاح الدين الدولية: هي أول مدرسة من مدارس الخدمة فُتحت في مصر، وذلك عام ٢٠٠٩. وهي الآن من الثلاثة الأوائل في ترتيب المدارس الدولية الخاصَّة في مصر، موقعها في مدينة "مصر الجديدة"، وهي تحفة في الجودة والعمارة، وآية في الإتقان والجمال.

(٥) صدح الرجلُ، وهو صدَّاح وصَدُوحٌ: رفع صوته بغناءٍ أو غيره.

(٦) المَرْبَع: المَوضع الذي يقام فيه زمن الرَّبيع خاصّة.

(٧) المَغْنَى: المَنْزِلُ الذي غَنِيَ به أهْلُه ثم ظَعَنُوا.

(٨) حفل الحفل ثلة من العلماء ورجال السياسة ووجوه البلد؛ على رأسهم مفتي الديار المصرية الأستاذ الدكتور علي جمعة وغيرهم من االسادة الأفاضل.

(٩) أَمر صَريمٌ: مُعْتَزَمٌ؛ والصَّريمةُ إحْكامُك أَمْرًا وعَزْمُكَ عليه.

(١٠) منه حديث نبينا محمد ﷺ: "أعطاكَ اللهُ التوراةَ فيها تِبيانُ كلِّ شيءٍ"، أي كشْفُه وإيضاحُه.

(١١) الحديد هو النافذ، قال تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(ق:٢٢)، أي فرأيك اليوم نافذ.

(١٢) القُمريّ: من أشهر الطيور في مصر، وهي مضرب للمثل.

طه كوزي*

"فلسفة البناء الحضاري"

بين يدي "مالك بن نبي" و"فتح الله كولن"

سطعت أنوار البِشر بالجزائر المسلمة لبًّا وروحًا، الثائرة ذاكرة وتاريخًا، والعثمانية نفَسًا وعبقًا، فانبلج بها فجر صادق بعد أن حلّ بها ثلة من أعلام الهدى، قادمين إليها من أفق ممتد من "جاوة" إلى "مراكش" ومن "طنجة" إلى "جاكرتا"... حاملين إلى "الجزائر" أفكارهم وإشراقاتهم، مشاركين إياها آمالها وأحلامها، بأشواقهم القلبية والروحية؛ يعبّون بفيض علمهم وطِيب حلمهم، طالبَ العلم والباحثَ عن الحقيقة توجيهًا وتعليمًا وترشيدًا... فاصطبغت أيام مؤتمر "فلسفة البناء الحضاري" عند "مالك بن نبي" و"فتح الله كولن" وأوراقُه وأفكارُه بهذه الروح، وتلظّت بذلك ندوة "حراء" الفكرية بجذوة الإيمان الوازع، والعلم النافع، والعمل الرافع.

ندوة حراء بالجزائر: عقيقة فكرية وسياحة معرفية

في قاعة "كوسموس" برياض الفتح بالجزائر العاصمة أمسية "الثامن عشر" من نوفمبر ٢٠١٢، غصّت القاعة بالحاضرين، ورفلت الجُموع في سماء الفكر والروح، وألقت في أفلاك الحكمة والفطنة، متعلمة ومتتلمذة: لنتاج فكري مصطلٍ من قبس الأستاذ "فتح الله" دارسين ومحللين، مقلّبين ومُنقّبين عن أسباب الانطلاق، وقواعد الانعتاق؛ فكانت سياحة فكرية حقَّة مع الدكتور "سليمان عشراتي" من جامعة وهران (الجزائر)،

د. سليمان الدقور

د. سليمان عشراتي

د. طاهر حجار

د. عمار طالبي

والذي استكشف بنظره الثاقب "هندسة الحضارة"، و"تجليات العمـران في فكـر فتح الله كولن"، ونظَم بلُبّـه وعقله مقومات "الانبعـاث الحضـاري فـي فكر الأسـتاذ فتـح الله"، فانتظمت هاتان القراءتان الفكريتان كتابَين وَليدين نشـرتهما "دار النيل" في القاهرة، فكان اللقاء فرصة للتعريف بالكاتب والمكتوب.

من "تَعز" أسّ الحضارة وعزّ الإسـلام، أطل الأستاذ "فؤاد البنا" إطلالة فكرية سَـنية، إذ بثّ أشـجانه وحبـه لوطنه الثاني الجزائر، آخذًا الحضور في سـباحة معرفية، وملاحة وجدانية في؛ عبقرية الأستاذ فتح الله.. بين قوارب "الحكمة" وشواطئ

ندوة "سياحة معرفية في عالم الأستاذ فتح الله كولن"

"الخدمـة"، فأخذ الألباب بحلمه، وفتَن الحضور بحبه ولبه... أتبـع الدكتور "محمـد باباعمي" المدير العـام لمعهد المناهج بالجزائـر هذه العبر والعبرات: قاصًّا حكاية كتابين، وفكرتين، وآهتين، وأنتين: أنة حب لوطنه، وآهة وجْد لفجرٍ وليد لأمته، وفكـرة انبعـاث لجيله، باحثًـا عن عصارة الترياق، وخلاصة المعنـى فـي طريـق الحضـارة والتمكيـن. فانسـابت المعاني رقراقـة في قِمطـر أول عنوانه "البراديم كولـن"، وانجلت بعد ذلـك أمـارات "أطبّـاء المعنى" و"جُنـد الإدراك" وشـروطهم وخصائصهـم فـي كتابـه الثانـي؛ "أرباب المسـتوى.. حضور معرفي في فكر الأسـتاذ فتح الله كولن"... فكانت "ندوة حراء " في الجزائر بذلك عقيقةً معرفية دسـمة لكتُبٍ مواليدَ، تعانق فيها العقل والإيمان، والفكر والوجدان في سماء "الجزائر".

"فلسفة البناء الحضاري عند مالك بن نبي وفتح الله كولن"

على مائدة فكر متبصّر أصيل فرشها عالمان صنوان، ومفكران أخـوان، لـم يلتقيا ولم يجتمعـا، لكنّهما معينَ القرآن تشـرَّبا، ومن جـذوة الحبيب المصطفى اصطلَيـا، ومن فيض الحكمة الحضاريـة غرِفـا... إنهما عالمان غريبان عـن بعضهما موطنًا

ملتقى "فلسفة البناء الحضاري عند مالك بن نبي وفتح الله كولن

وجسـدًا، إلا أنهما يمثـلان في ذاكرة الأمـة الحِصْن والحَرَم، وفي صرح البناء الحضاري الشامة والمَعْلم، وفي ساح ترشيد الفكر والفعل الهامة والعلَم... على هذه المائدة فكِهت أرواح وقلوب كانت عطشى، وأفئدة لغد أفضل صارت ظمأى، فكان لها محراب الأسـتاذ "مالك بن نبي" وجذوة الأسـتاذ "فتح الله كولن" "الصفا والمروة" والمروى.

افتتـح الدكتـور "طاهـر حجـار" رئيـس جامعـة الجزائـر المؤتمر بكلمة ترحيبية بضيوف "الجزائر"، معتبرًا المؤتمر لبنة فـي فهم فكر الأسـتاذين "مالك بن نبي" و"فتـح الله كولن"...

إثرها أسرى بنا الأستاذ "مصطفى أوزجان" المستشار لمجلة حراء، إلى معارج "الفكر الحضاري"، مؤكدًا أن بُنيانه لا يستقيم إلا بعجن طينة "إنسان جديد" يُشرق بيديه فجر وليد؛ وفي هذا المسلك السديد يجتمع الشيخ "عبد الحميد بن باديس"، والشيخ "محمد البشير الإبراهيمي"، والأستاذ "فتح الله كولن"... ولم تنقض أنفاس الجلسة العلمية الأولى قبل أن تفيض بشهادة حيّة للدكتور عمار طالبي رئيس المجلس العلمي للجزائر العاصمة، معبّرًا عن رفقة طيبة للمفكر مالك

بن نبي -رحمه الله- في سنوات خلت، ترسمت من خلالها تقاسيم وملامح ذاك الرجل المتقد فكرًا، السامي جَنانًا رغم انتكاسات الزمان والمكان، وضعف الإمكان.

توالت الكلمات والأوراق البحثية خلال اليومين تترى، تسيح في ملكوت الفكر، وتجول في سلطنة القلوب، من مقاربة مقارنةٍ بين الأستاذ "مالك بن نبي" والمفكر "ابن خلدون" للبروفيسور "بروس لورونس" من "الولايات المتحدة الأمريكية"... إثر هذه المداخلة تحدثت الدكتورة "فريدة بلفراق" من جامعة "الجزائر" عن الهم الحضاري والتوتر الذي صبغ فكر الأستاذ "مالك بن نبي"...

ورفل بالحضور الدكتور "عبد الحميد مدكور" من "مصر" حين تحدث عن أثر العقيدة في فكر العالِمين "ابن نبي وفتح

الله"، وشفّت عَبَرات الدكتور "مدكور" خلال حديثه، عن شخصية العالم الأواه الحليم... كما حملنا الدكتور محمد باباعمي إلى سماء الخلق الحليم محورًا للدين والحضارة، في ورقة عنونها بـ"محورية الأخلاق في البناء الحضاري، عند مالك بن نبي وفتح الله كولن"... وقد أمتع بدوره الدكتور "سمير بودينار" من جامعة "محمد الخامس" بالمغرب الحضورَ بحديثه عن تقفي أثر الحكمة الحضارية في فكر العلَمين... وتطرق الدكتور "سليمان الدقور" إلى موضوع "الصلات والعلاقات" وأثرها في البناء الحضاري، متحدثًا عن محورية مواجهة "الجهل"، و"الفقر"، و"الفرقة" في فكر الأستاذ "مالك وفتح الله"... وقد نقشت مداخلة الأستاذ "رشيد هَيْلماز" ذاكرة المؤتمرين حين أَلِق بحديثه عن موقع السيرة النبوية في فكر الأستاذ "فتح الله"، وكيف أن "الأستاذ" يؤكد على دراسة "فلسفة السيرة" قصد استنباط "القواعد الكلية" في البناء الحضاري عوض الإخلاد إلى قراءة سيرة "المصطفى" ﷺ بمنهج وصفي، واعتبارها سردًا لأحاديث ووقائع تاريخية متناثرة...

وقد شرّف المؤتمر حضور عدد من كبار العلماء والمرشدين، وحاملي لواء العلم والحلم، من أقطار ممتدة من المعمورة، من "البوسنة والهرسك" إلى "السودان"، ومن "نيجيريا" إلى "أربيل" العراق.

لقد كان مؤتمر "فلسفة البناء الحضاري"، مرآة تعكس فيض المحبة في القلوب وتناغم العقول، وينِمُّ -في الوقت نفسه- عن فجر جديد يلوح في الأفق.

لقد خلّف اختتام المؤتمر وحشة وغربة في الأنفس والألباب، إلا أنها ستستحيل -لا ريب- روضًا وسندسًا بدوام الازدياد المعرفي، وتوجيه الطاقة، وترشيد الفكر والفعل. ■

(*) كاتب وصحفي جزائري. إعداد المادة العلمية: هيئة التحرير بفيكوس.

نور الدين صواش*

اليعسوب.. وتقنية طائرات الهيلوكبتر

أجرى العلماء أبحاثًا حول حشرة "اليعسوب"، فاندهشوا عندما رأوها تتمتع بتصاميم مبهرة في جسمها وجناحها، وبتقنية عالية في طريقة طيرانها... وجدوا أن هذه الطائرة الحية تمتلك أنظمة طيران مذهلة، ولديها حيوية كبيرة وسرعة فائقة في المناورة والطيران واتخاذ طريق معيّنة... إنها تقف في الهواء، وتطير نحو الخلف، وتملك قدرة الهبوط والصعود العمودي، وتتحلى بنظام رؤية خارقة.

نعم، حشرة اليعسوب تتحلى بزوجين من الأجنحة الغشائية التي تتحرك باستقلالية تامة عن بعضها البعض، الأمر الذي يُكسِبها نظامَ طيران مدهش. تطير حشرة اليعسوب بسرعة تصل إلى ٥٠ كم في الساعة الواحدة. وقابلية المناورة لديها تفوق أحدث المروحيات المتطورة لدى الإنسان، حيث تتمكن بواسطة هذه القابلية من التخلص بنفسها من الطيور والحيوانات الأخرى بكل سهولة.

هذه الحشرة لها عيون كبيرة جدًّا تغطي معظم رأسها، وبين هذه العيون يوجد ٣٠ ألف عين دقيقة كل منها ترى نقطة معينة، فضلاً عن أن هذه الحشرة تملك موهبة خارقة في رؤية الكائنات الساكنة على بُعد مترين، ورؤية الكائنات المتحركة على بُعدٍ يعادل ثلاثة أضعاف هذه المسافة.

هذا وقد زُوّدت حشرة اليعسوب أيضًا أمام عيونها بنظام يمكّنها من إبقاء رأسها موازيًا سطح الأرض، تمامًا مثل الـ"جراسكوب" الذي يُستخدَم في الطائرات، لتحديد خط أفق اصطناعي يعرف الطيارُ من خلاله خطّ الأفق الحقيقي ويحدد موقع الطائرة بعد المناورة وفقًا لسطح اليابسة وينجو من السقوط.

واللافت للنظر أنه إذا وقع أيّ تغيّر في موضع جسم اليعسوب، فسرعان ما يتم تنبيه الشعيرات الكائنة بين رأسها وجسمها؛ فتقوم الخلايا العصبية في جذور هذه الشعيرات، بإرسال الإنذارات إلى عضلات اليعسوب لإخبارها عن موضعها في الهواء، عندها تقوم عضلات الأجنحة ببرمجة سرعةِ وعدد رفرفة الأجنحة أوتوماتيكيًّا... وهذا يساعدها على التحكم بجسمها، ويحفظ لها توازنها ووجهة طيرانها حتى في أصعب المناورات... وهذا النظام بحدّ ذاته أمر خارق في هندسة الطيران.

قام العلماء بعد كل ما توصلوا إليه من اكتشافات حول حشرة اليعسوب، بتصميم مروحية "سيكورسكي" التي تعدّ الأولى في العالم، محاولين بها محاكاة حشرة اليعسوب الصغيرة. ■

(*) كاتب وباحث تركي.

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş

İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز

مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام

نوزاد صواش

nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هانئ رسلان

مدير التحرير

أجير أشيوك

المخرج الفني

مراد عرباجي

المركز الرئيس

HIRA MAGAZINE

Kısıklı Mah. Meltem Sok.

No:5 34676 Üsküdar

İstanbul / Turkey

Phone: +902163186011

Fax: +902164224140

hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة

تليفون وفاكس: 5-20226134402+

الهاتف الجوال : 201004871038+

جمهورية مصر العربية

نوع النشر

مجلة دورية دولية

Yayın Türü

Yaygın Süreli

الطباعة

رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم

pr@hiramagazine.com

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلًا أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN

دار النشر للجامعات

الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي،

أمام الجامعة القديمة

Phone: +967 1 440144

GSM: +967 711518611

ALGERIA

Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim

GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN

مركز دار النيل، مكتب الخرطوم

أركويت مربع 48 منزل رقم 31 – الخرطوم – السودان

Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69

hirasudan@hotmail.com

JORDAN

شركة زوزك/شميساني شارع عبد الحميد شرف، بناية رقم:61

عمان/الأردن.

Phone: +962 656 064 44

GSM: +962 775 935 756

hirajordan@hotmail.com

UNITED ARAB EMIRATES

دار الفقيه للنشر والتوزيع

ص.ب. 6677 أبو ظبي

Phone: +971 266 789920

MAURITANIA

Phone: +2223014264

USA

Tughra Books

345 Clifton Ave., Clifton,

NJ, 07011, USA

Phone:+1 732 868 0210

Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA

الوطنية للتوزيع

Phone: +966 1 4871414

المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع

الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار

ص.ب: 68761 الرياض: 11537

الجوال: 00966504358213

saudia@hiramagazine.com

abdallahi7@hotmail.com

Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO

الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة

Société Arabo-Africaine de Distribution,

d'Edition et de Presse (Sapress)

70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco

Phone: +212 22 24 92 00

SYRIA

GSM: +963 955 411 990

عبقرية فتح الله كولن

بين قوارب "الحكمة" وشواطئ "الخدمة"

أ.د. فؤاد البنا

- كتاب غاية في الإمتاع...
- قلم محب يجري في مسارب فكر...
- سيرة وحياة... ومجاري أقدار...
- عبقرية فرد... وعبقرية أمة...
- إشراقات حكمة على أرض الخدمة...

مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة / مصر
تليفون وفاكس : 5-20226134402+ الهاتف الجوال : 201004871038+
www.daralnile.com

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

طائر السعد

طائر السعد حولَ قلوبنا يحوم،
وفي آفاق أرواحنا يحلّق...
أتُرانا نحلم؟ أم نتخيّل؟
ليكن ما نشعر به خيالاً، أو حلمًا ووهمًا...
فما أجدر أن نستمد من هذا الخيال قوةً وطاقة، وهِمَّةً وعزمًا...
وإذا كان ماضينا قد واتته رياح السعد، فعاش أعلى المثاليات...
فَمَنْ قال إنَّ هذه الريح لن تهبَّ نحو حاضرنا من جديد،
فنسعد، وآمالَنا نحقق؟!

* * *

تركيا: ٦ ليرات • أوروبا: ٣,٥ يورو
أمريكا: ٥ دولار • المملكة العربية السعودية: ١٢ ريال سعودي • اليمن: ٣٥٠ ريال يمني • المغرب: ٢٠ درهم • الجزائر: ٢٥٠ دينار
ISSN 1306-1879
www.hiramagazine.com